كتاب الأمة
Al Ummah
٢٧

المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

الدكتور عبد العظيم محمود الديب

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

الدكتور عبد العظيم محمود الديب

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
لرئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولة قطر

ماينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.

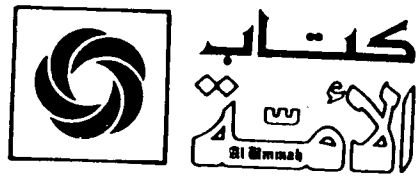

صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية « طبعة ثالثة »
  الشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف « طبعة ثالثة »
  الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية « طبعة ثالثة »
  اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم « طبعة ثالثة »
  الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري « طبعة ثالثة »
  الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري « طبعة ثالثة »
  الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين « طبعة ثالثة » « طبعة انجليزية »
  الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي « طبعة ثانية »
  عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام « طبعة ثانية »
  الدكتور طه جابر فياض العلواني
- التراث والمعاصرة « طبعة ثانية »
  الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي « طبعة ثانية »
  الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل « طبعة أولى »
  عبد القادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية « طبعة أولى »
  الدكتور جمال الدين عطية

- مدخل إلى الأدب الإسلامي
« طبعة أولى »
الدكتور نجيب الكيلاني
- المخدرات من القلق إلى الاستعباد
« طبعة أولى »
الدكتور محمد محمود الهواري
- الفكر المنهجي عند المحدثين
« طبعة أولى »
الدكتور همّام عبد الرحيم سعيد
- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار
الجزء الأول والثاني « طبعة أولى »
+ طبعة خاصة بمصر
الأستاذ عمر عبيد حسنة
- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر
« طبعة أولى »
الدكتور زغلول راغب النجار
- دراسة في البناء الحضاري
« طبعة أولى »
+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب
الدكتور محمود محمد سفر
- في فقه التدين فهما وتنزيلا
الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى »
+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب
الدكتور عبد المجيد النجار
- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع الاستثمار ـ النظام المالي)
« طبعة أولى »
+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب
الدكتور رفعت السيد العوضي
- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة
« طبعة أولى »
+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب
الدكتور محمد احمد مفتي
والدكتور سامي صالح الوكيل
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنّة الله في الخلق
« طبعة أولى »
+ طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب
الدكتور أحمد محمد كنعان

المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

ربيع الثاني ١٤١١هـ

قال تعالى :

« قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» .

(آل عمران : ٦٤)

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمدلله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وبدأ الوحي بالكلمة : اقرأ ، وجعل الجهاد الفكري ، أو المجاهدة بالقرآن ، وبناء الشوكة الفكرية هي أعلى أنواع الجهاد وأسماها ، لأن الساحة الفكرية هي ميدان المعركة الحقيقي بين الإسلام وخصومه قال تعالى : ﴿ فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

واعتبر الحوار والمناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن الطريق الأمثل لنشر الدعوة ونصرها ، وتحقيق الاقتناع الذي يتشكل في الأعماق ، فيولد الإيمان ، الذي لايمكن أن يفرض بالإكراه .

والصلاة والسلام على الرسول القدوة ، الذي كانت سيرته وقيادته أنموذجاً لدولة الفكرة دولة الشورىٰ السياسية ، والعدالة الاجتماعية ، والحرية الإنسانية ، وكان كل مطلبه إيصال الفكرة وكلمة الحق : « خلوا بيني وبين الناس » ، وكان كل جهد الكفار الحيلولة دون وصول كلمة الحق إلى آذانهم والشغب عليها ، لأنها ستهزمهم : « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (فصلت : ١٦) . .

وبعد :

فهذا كتاب الأمة السابع والعشرون : « المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي » للدكتور عبدالعظيم الديب ، في سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات ، برئاسة المحاكم الشرعية ، والشؤون الدينية ، بدولة قطر ، مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري ، والتحصين الثقافي ، وإعادة بناء الشخصية المسلمة ، وترميم عالم الأفكار ، وتنقية الموارد الثقافية ، وامتلاك القدرة على الاجتهاد ، وإيجاد الأوعية الفكرية لحركة الأمة ، وتنزيل الإسلام على واقع الناس ، وتقويم سلوكهم به ، بعد أن افتقدت تلك الشخصية الكثير من فعاليتها ، ومنهجيتها ، وصوابها ، وانحسر شهودها الحضاري ، وعجزت عن التعامل مع قيم الكتاب والسنة ، وانتهت إلى التقليد الجماعي ، والتخاذل الفكري ، سواءً أكان هذا التقليد في الهروب إلى ملاجىء التراث الذي لايخرج في النهاية عن أن يكون اجتهادات بشرية قابلة للخطأ والصواب ، على أحسن الأحوال ، جاء ثمرة لمشكلات العصر الذي نشأت فيه ـ كنوع من التعويض عن مركب النقص ، وحماية الذات ، وأخذ جرعات من الاعتزاز والفخر بالتاريخ وإنجاز الأجداد ، أم كان باللجوء إلى استيراد البديل الأسهل من الخارج الإسلامي ، ومحاولة إيجاد الحلول في أوعية الآخرين الفكرية .

ولاشك أن الاستشراق كان ولايزال يشكل الجذور الحقيقية ، التي تقدم المدد للتنصير والاستعمار ، والعمالة الثقافية ، ويغذي عملية الصراع الفكري ، ويشكل المناخ الملائم لفرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي ، وإخضاع شعوبه ، فالاستشراق هو المنجم ، والمصنع الفكري ، الذي يمد المنصرين والمستعمرين ، وأدوات الغزو الفكري ،

بالمواد التي يسوقونها في العالم الإسلامي ، لتحطيم عقيدته ، وتخريب عالم أفكاره ، والقضاء على شخصية الحضارة التاريخية .

لقد تطورت الوسائل ، وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة ، ويكفي أن نشير إلى أن مراكز البحوث والدراسات ، سواءً أكانت مستقلة ، أم أقساماً للدراسات الشرقية في الجامعات العلمية ، ومايوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية ، أو المبتكرات العلمية ، والاختصاصات الدراسية ، تمثل الصور الأحدث في تطور الاستشراق ، حيث تمكِّن أصحاب القرار من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً .

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات ، القسم الكبير منها متخصص بشؤون العالم الإسلامي . . وظيفة هذه المراكز : تتبع ورصد كل مايجري في العالم ومن ثم دراسته وتحليله ، مقارناً مع أصوله التراثية التاريخية ، ومنابعه العقائدية ، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار ، لتبنىٰ على أساسه الخطط وتوضع الاستراتيجيات الثقافية والسياسية ، وتحدد وسائل التنفيذ .

لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والتحليل ، ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية والثقافية ، وجميع الدراسات الإنسانية اليوم ، توازي المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية ، إن لم تكن أكثر دقة واهتماماً ، حيث لم يعد مجال للكسالىٰ والنيام ، والمتخاذلين والأغبياء في عالم المجدين الأذكياء .

لقد اكتفينا نحن مسلمي اليوم بمواقف الرفض والإدانة ، للاستشراق والتنصير ، اكتفينا بالانتصار ، والانحياز العاطفي للإسلام ، وخطبنا كثيراً وانفعلنا أكثر ، ولم تعْلُ إلا أصواتنا ، ولانزال نحذر من الغارة على العالم

الإسلامي ، القادمة من الشرق والغرب ، ومن المخططات الصهيونية الماكرة والصليبية الحاقدة ، لقد أصبح ذلك يشكل عندنا مناخاً ثقافياً ، وإرثاً فكرياً ، وطريقاً أمثل للوصول إلى المناصب والزعامات ، دون أن تكون عندنا القدرة على إنضاج بحث ذي قيمة في الموضوع ، أو إيجاد خطة أو وسيلة مدروسة في المواجهة ، أو محاولة جادة لتقديم البديل الصحيح للسيل الفكري والثقافي ، والإعلامي ، والأكاديمي ، القادم من هناك ، إلا من رحم الله من جهود فردية تمثل إضاءات ، كما أنها تمثل في الوقت نفسه إدانات لهذا الفراغ ، والادعاء ، والعجز ، والتخاذل الفكري .

إننا لانزال في مرحلة العجز عن تمثل تراثنا بشكل صحيح ، ومن ثم القدرة على غربلته وفحصه ، والإفادة من العقلية المنهجية ، التي أنتجته ، والقدرة على إنتاج فكري معاصر يوازيه ، من خلال الاهتداء بالقيم المحفوظة في الكتاب والسنة ، حيث لايزال بعضنا يصر حتى اليوم على نقل القدسية من الكتاب والسنة المعصومين ، إلى أقوال واجتهادات البشر الفقهية والفكرية ، وفعلهم التاريخي ، وبذلك يلغي عقله تماماً ، ويسقط في فخاخ التقليد الجماعي ، ويقف أمام هذا التراث للتبرك والمفاخرة ، دون أن تكون لديه القدرة على العودة إلى الينابيع التي استمد منها ، فينتج تراثاً معاصراً ، قادراً على قراءة مشكلات العصر ، وتقديم الحلول الشرعية لحركة الحياة ، ويفكر بوسائل تنزيل الإسلام على الواقع وتقويم الواقع به .

والمظهر الآخر للعجز نفسه يتمثل في فريق آخر ، يحاول القفز من فوق الفهوم السابقة ، والتراث الفقهي والفكري ، ضارباً عرض الحائط هكذا بحكم عام ، وعامي في الوقت نفسه ، بكل الإنتاج الفكري ، والحضاري الإسلامي ، بدعوىٰ التناول المباشر من الكتاب والسنة ، دون امتلاك القدرة

على ذلك . فكيف يمكننا ـ وهذا موقعنا وواقعنا ـ أن نمتلك الشوكة الفكرية ، التي تمكننا من النزول إلى معركة الصراع الحضاري والفكري ، ونأمل أن نحقق فيها انتصارات للإسلام والمسلمين ؟

وقد نلاحظ هنا أن الكثير منا لايزال مولعاً بالمعارك القديمة ، التي انتهت بأصحابها وأهدافها وأسلحتها وزمانها ، ومع ذلك فهو يصر على دخول المعركة المنتهية ، ويستنزف طاقاته ، وطاقات من يستمعون إليه فيها ، ويحاول أن يحقق انتصارات في الفراغ ، بعد أن تطورت المعركة ، وتطورت أسلحتها ، وتغير أشخاصها ، وتبدلت ساحاتها ، وبلغت أبعاداً وأمداء تفعل فينا فعلها ، لكننا سوف لاننتبه إليها إلا بعد فوات الأوان ، ولاندخل ساحتها إلا بعد أن تكون قد أدت أغراضها ، وحققت أهدافها .

لقد دخلنا المعارك القديمة ، ولانزال ندخلها ، وننشغل بها ، على حساب الحاضر ومايدور فيه ، والمستقبل وما يخطط له ، ويمكننا هنا أن نقول : بأننا سوّقنا لأفكار المستشرقين عن حسن نية ، وعملقنا أشخاصهم ، دون حسابات دقيقة للآثار السلبية على أكثر من صعيد ، لما يترتب على ذلك ، وكأننا لكثرة مانبدي ونعيد في هذه الموضوعات ، ونكتب ونخطب ، نوحي أننا مازلنا دون مرحلة النصر ، أو على أحسن الأحوال ، لانزال نعاني من آثار الهزيمة الفكرية التي تعيش في أعماقنا ، إلى جانب مايمكن أن تورثه تلك المعارك من قدرة الخصم على التحكم بمسار تفكيرنا ، ونشاطنا العقلي ، لأنه يكفي أن يلقي إلينا ببعض التشكيكات ، ليستثيرنا ويحول جهودنا وطاقاتنا إلى تلك المواقع الدفاعية ، فينفرد هو بالتخطيط لتحقيق أهدافه ، وكلما حاولنا أن ننتبه ، ينتقل بنا من مشكلة إلى أخرى . فنبقىٰ دائماً في مجال رد الفعل ، ونعجز دائماً عن الفعل ، ذلك أن رد الفعل يملكنا ، بينما نحن الذين نملك الفعل . .

وسوف تبقىٰ هذه المواقف الدفاعية ، والأفكار الدفاعية ، على حساب البناء الداخلي ، والإنجاز الأهم . ونحن هنا لا نقول : بأن الدفاعات غير مطلوبة ، والحراسات لاقيمة لها ، وإنما الذي نريد أن نوضحه : أنها عند الأمم التي تبصر مهامها تماماً ، وتدرك مشكلاتها حقيقة ، تقدر بقدرها .

ولنا في منهج القرآن خير دليل . . فلو أن القرآن الكريم استجاب لكل تمحلات الكافرين وشكوكهم وشبههم ، لكانت آياته جميعها تمثل رد الفعل ، والاستجابة لطلبات الكافرين ، ولما تفرغ لبناء أمة ، وإنجاز حضارة . . والذي نلمحه من منهج القرآن في ذلك ، أنه طرح من الحقائق والأدلة مايكفي لمن يريد الاستدلال ، والذي لايستدل بما طرحه من آيات وأدلة ، فلن يستدل ، فالمشكلة لم تعد في الدليل ، وإنما بعناد المستدل الذي لابد من تجاوزه ، إلى مرحلة البناء المرصوص ، بحيث لايوجد بعد ذلك مداخل وفراغات يملؤها الأعداء .

ومن جانب آخر ، فلعل الأساليب الدفاعية ، أو الأفكار الدفاعية تشكل نوعاً من الراحة النفسية ، لأنها في النهاية تعني فيما تعني إعفاء النفس من المسؤولية وإيجاد الذريعة لها عن عملية البناء ، والواجب الحضاري المطلوب والغائب .

فإذا كان الكثير منا ، على مستوى الأفراد ، والمعاهد ، والمؤسسات الأكاديمية ، لايزال يعيش على مائدة المستشرقين ، لفقر المكتبة الإسلامية للكثير من الموضوعات التي سبقنا إليها في مراحل السبات العميق ،

وإذا كانت مناهج النقد والتحليل ، وقواعد التحقيق ، ووسائل قراءة المخطوطات ، من ابتكارهم ، ووضعهم ، فلابد أن يصدق فينا قوله تعالى : ﴿ فلاتلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ (إبراهيم : ٢٢) إلى حد بعيد .

وإذا تجاوزنا جهود علمائنا الأقدمين ، في تدوين السنة من خلال وسائل عصرهم ، وتأسيس ضوابط النقل الثقافي ، وقواعد الجرح والتعديل ، وتأصيل علم مصطلح الحديث ، الذي حفظ لنا السنة ، والذي كان من عطاء منهج القرآن في الحفظ والتدوين للوحي ، فإننا لانكاد نرى اليوم فيما وراء الشرح والاختصار ، سوى النقل لجهود السابقين من الخطوط اليدوية إلى حروف الطباعة . فقد اقتصر عمل معظم المشتغلين بالحديث والسنة عندنا على تحقيق بعض الأحاديث تضعيفاً وتقوية ، لإثبات حكم فقهي أو إبطاله ، أو إثبات سنة ، في مواجهة بدعة ، وهذا العمل على أهميته وضرورته يبقى جهداً فكرياً فردياً دون سوية البعد المطلوب ، الذي يمكّن من الانتفاع بكنوز الميراث الثقافي .

والذي ينظر اليوم إلى دوائر المعارف ، والموسوعات التي شكلت لإنجاز الفقه الإسلامي بشكل عصري ، يمكّن من الإفادة منه ، أو إلى مراكز بحوث السيرة والسنة ، في أكثر من بلد إسلامي ، ومـاوضع تحت تصرفهـا من الإمكانات ، ومضي السنين الطويلة وهي لاتزال دون إنجاز يذكر ، في الوقت الذي نرى أنفسنا مضطرين إلى الرجوع والنظر في موسـوعة المستشرقـين « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث » للتعرف على مانريده ، على الرغم من رأينا فيهم ؛ يدرك خطورة التخاذل الفكري ، وخطورة الادعاء والتفاخر ، والفراغ الرهيب ، الذي مكن المستشرقين وغيرهم من احتلال عقولنا واستلابنا الحضاري .

وليست مجامع اللغة العربية ، التي تحبس نفسها اليوم في مجادلات عقيمة على حساب الإنتاج المطلوب في معركة التعريب والمعاجم ، بأحسن حالاً من موسوعات الفقه ، ومراكز السيرة والسنة . وحسبنا أن نقول : بأننا إلى اليوم لم

ننتج معجماً للغة ، يناسب ابن العصر الحاضر من خلال تقدم وسائل الطباعة والفهرسة والألوان ، ولانزال إذا أردنا أن نفتش عن معنى لفظة نضطر لتجريدها إلى مادتها الأصلية ، وتحديد الباب والفصل ، ومن ثم الرجوع إلى المعجم ، بعد هذه الرحلة المضنية ، التي قد يعزف المثقف معها عن الرجوع إلى المعاجم ، في الوقت الذي تطورت خدمة اللغات ووسائل تعليمها ومعاجمها ، إلى درجة مذهلة ، بل يمكن أن نقول : إننا كنا الأقدر على نقد المعاجم العربية التي وضعتها المؤسسات التبشيرية ـ مثل المنجد للأب لويس معلوف والأكثر عجزاً في وضع معجم مناسب ، ولايزال الكثير منا في المدارس والمعاهد يرجع إلى المنجد على كره منه حيث يفرض وجوده ، لأنه الأيسر .

لقد نجحت العقلية الأوروبية الاستشراقية ، في فرض شكليتها وآليتها على التحقيق ، والتقويم ، والنقد ، والسيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي . . وعن طريق الاستشراق والمستشرقين ، بادرت إلى التحقيق والطبع والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية . وعلى الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من صفة النزاهة والحياد ، إلا أنها في النهاية ، وبكل المقاييس تبقىٰ مظهراً من مظاهر الاحتواء الثقافي .

لقد نجحت العقلية الأوروبية ـ كما أسلفنا ـ في فرض شكلية معينة من التحقيق والتقويم ومناهج النقد ، ويمكن القول : بأن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث ، قد سارت على هذا النهج في التاريخ والأدب وغيره ، ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر ، وانتهت إلى إيجاد ركائز عربية معبرة عنها ، ومتبنية لوجهة نظرها ، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلتها . . حتى في الجامعات ، والمؤسسات العلمية ، لايزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية ، التي اكتسبها بعض المثقفين العرب من الجامعات الأوروبية . لقد

ارتُهِنوا للمنهج والمصدر في آن واحد .

صحيح أن الاستشراق خرج من المناخ الثقافي لـلاهوت الغـربي بكل مكوناته ، وتأسس واستمر ضمن إطار المناخ الاستعماري ، وبدأ خطواته الأولىٰ باتجاه العقل الأوروبي ، ليحول بينه وبين اعتناق الإسلام ، لذلك جاءت معظم الدراسات والكتابات باللغات الأوروبية ، ولمخاطبة أبنائها ، وجاء جل هذه الدراسات ، إن لم نقل كلها ، محكومة بدوافعها وأهدافها بعيدة عن التزام الموضوعية والعلمية ، لأن التزام الموضوعية سوف يفوت غرضها ، ذلك أن التزام الموضوعية ، سيكون بلاشك في صالح الإسلام ، بوصفه دين الله الحق ، البعيد عن مواضعات البشر وأخطائهم وتأثراتهم .

وهنا قضية لابد أن نتنبه لها ، لأنها قد تغيب عن أذهان كثير منا ، ممن يعرضون لموضوع الاستشراق بشكل خاص ، أو القضايا الفكرية والثقافية بشكل عام ، وهي أن الإنتاج الفكري ـ والاستشراق بعض منه ـ هو في الحقيقة يمثل الوليد الطبيعي والشرعي للثقافة التي تنتجه ويربىٰ في مناخها ، فالمفكر هو إلى حد بعيد رهين الثقافة التي ينشأ فيها ، وليس وليداً للموضوع المدروس ، أو المطروح ، باعتباره صاحب الحق الأول في الاهتمام والدراسة .

لذلك لا يستطيع أي مستشرق أن يتناول موضوعاته دون أن يخضع للقوالب والحدود الفكرية والعلمية ، المفروضة عليه مسبقاً ، بسبب من ثقافته التي يصعب عليه الانفلات منها .

لذلك قد يكون من الصعوبة بمكان وضع حدود فاصلة وواضحة بين الاستشراق، والتبشير، والاستعمار .

والذين يجهدون أنفسهم في التفريق ، بين الاستشراق ، والتبشـير ، والاستعمار ، ليقيموا بذلك الجسور الثقافية الغربية إلى الداخل الإسلامي ،

كالذين حاولوا - ولايزالون - إيجاد الفوارق ، بين الصهيونية واليهودية ، وكم تكون مأساتنا كبيرة إذا اكتشفنا أن هذا التفريق في النهاية ليس من اختراعنا واكتشافنا ، وإنما هو من جملة الفخاخ الثقافية التي نقع فيها .

نعود إلى القول : بأن الاستشراق بدأ خطواته الأولى باتجاه العقل الأوروبي ليحول بينه وبين اعتناق الإسلام ، فكانت الترجمات الأوروبية المبكرة للقرآن الكريم ، والسيرة ، ومن ثم بدأت الدراسات التاريخية والاجتماعية والتراثية بعامة ، في المعاهد والجامعات والمراكز العلمية ، التي أنشئت لتخريج القناصل والسفراء ، والكتبة ، والجواسيس ، لتأمين مصالح بلادهم ، وتوفير المعلومات عن بلاد العالم الإسلامي ، وإقامة مراكز لدراسة هذه المعلومات ، وتحليلها ، لتكون بمثابة دليل للاستعمار ، في شعاب الشرق وأوديته ، من أجل فرض السيطرة الاستعمارية عليه ، وإخضاع شعوبه ، وإذلالها ، وارتهانها للثقافة الغربية ، والوصول بها إلى مرحلة العمالة الثقافية . . لذلك ، لم يقتصر الاستشراق على مخاطبة العقل الأوروبي ، كما لم تقتصر كتابات المستشرقين ودراساتهم على حماية الأوروبي من اعتناق الدين الإسلامي ، وإن كان ذلك هو الهدف الأول ، وإنما تجاوزت إلى محاولة إلغاء النسق الفكري الإسلامي ، ومحاولة تشكيل العقل المسلم ، وفق النسق الغربي الأوروبي ، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي ، لممارسة هذا الدور والتقدم باتجاه الجامعات والمعاهد ومراكز الدراسات ، والإعلام ، والتربية في العالم الإسلامي ، لجعل الفكر الغربي والنسق الغربي هو المنهج ، والمرجع ، والمصدر ، والكتاب ، والمدرس في كثير من الأحيان .

لذلك نرى أن علماء الاجتماع ، والنفس ، والتربية ، هم الذين يمثلون الصورة الأحدث للمستشرقين ، في الوقت الذي يمارس فيه الخبراء الذين

يُستوردون إلى عالمنا ، التسويق الثقافي . . فالصورة التي ترسمها وسائل الإعلام اليوم ، والقرارات التي يتخذها أصحاب السلطان ، التي تخص العالم الإسلامي ، هي من صناعة علماء الاجتماع وتسويق الخبراء .

لقد تطورت أهداف وأساليب الاستشراق تطوراً مذهلاً ، وإن كان الكثير منا لايزال مصراً على المرابطة في المواقع القديمة والمحاربة في المعارك المنتهية ، التي مضى عليها أكثر من نصف قرن على أحسن الأحوال ، والخروج من الزمان والمكان . كذلك ، فالقول بأن المستشرقين يكتبون لأبناء جلدتهم ، إن صدق هذا ، فإنه يصدق على مرحلة البدايات الاستشراقية التي مانزال نقف عندها ، أما تعميمه على كل إنتاج المستشرقين ففيه الكثير من المجازفة .

لقد اهتم المستشرقون بالتشكيل الثقافي للأمة المسلمة في ضوء رؤية معينة ، وخطة مدروسة ، لذلك ولجوا جميع الميادين ، وحاولوا الوصول والتحكم بالموارد الثقافية كلها ، وبحثوا ونقبوا وأثبتوا وجهة نظرهم ، وتفسيرهم ، في الكثير من القضايا المعرفية ، إلى درجة يمكن معها القول : بأن الاستشراق استطاع أن يملي على الكثير منا وجهة نظره ، في مجالات متعددة ، بشكل أو بآخر ، وإن كان مدى التأثير يختلف من شخص إلى آخر .

لقد كتبوا في الأدب ، واللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، في محاولة لبناء الذهنية الإسلامية وفق النمط الغربي ، من خلال المناهج ومصادر الدراسة ، ومراجع البحوث ، في الجامعات والمدارس ، ومن خلال عملية الابتعاث والتلمذة على أيدي أساتذة الأقسام العربية والدراسات الشرقية ، في الجامعات الأوروبية والأمريكية ، لذلك نرى الكثير من المثقفين ، لايدركون أنفسهم إلا من خلال رؤية الآخرين ، فلم يعد في وسع الكثير منهم أن يكتب عن التراث ، والتاريخ ، والأدب ، دون الرجوع إلى كتابات المستشرقين ،

وأصبحت الموارد الفكرية الخارجية هي التي تصنع الثقافة الداخلية ، أو أصبح الخارج هو الذي يتحكم بالداخل الإسلامي ، بسبب من مركب النقص ، وعقدة تفوق الآخر ، الأمر الذي يؤدي إلى الاستلاب الحضاري ، وذلك بتسليط نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية الغربية ، وصولاً إلى السيطرة الفكرية الكاملة .

ولما كان هـذا الاستلاب يمكن أن يكـون من المنبهات والاستفـزازات الحضارية ، خاصة بالنسبة لأمة تمتلك شخصية حضارية تاريخية ، ولاتزال تحتفظ بخميرة الإمكان الحضاري ، عدل المستشرقون بأساليبهم المتطورة ، عن الطرح المباشر ، إلى محاولة تحييد الإسلام عن واقع الحياة ، والدعوة إلى العلمانية .

ولما اكتشف مدلول مصطلح العلمانية ، وأنه كلمة حق أريد بها باطل ، وأنها تعني فيما تعني : اللادينية ، وإسقاط الأديان من البناء الحضاري والثقافي للأمة ، كـان لابد من التفتيش عن البـديل ، فـطرح مصطلح العقلنـة والعقلانية ، إذ كيف لايقبل المصطلح والإسلام دين العقل !؟ ولما سقط ، طرح فصل الدين عن الدولة ، في العالم الإسلامي . . كان البديل جاهزاً أيضاً : إن المطلوب اليوم هو فصل الدين عن السياسة أو عدم تسييس الدين .

وللوصول إلى إعادة التشكيل الثقافي ، وفق النمط الغربي ، كان لابد أيضاً من إلغاء عملية التواصل الفكري والثقافي بين الأجيال ، ومحاولة فصل الحاضر عن الميراث الثقافي ، وذلك بالتقليل من قيمته ، والقيام بعملية التقطيع والتجزيء ، أو قراءته بأبجدية النسق الغربي ، وتفسيره تفسيراً مذهبياً ، لاتفسيراً منهجياً من خلال قيمه التي صدر عنها ، أو القيام بعملية الانتقاء من التراث الفكري ، والأدبي ، للمواضع التي تهز ثقة المسلم بتراثه ، والاقتصار

على إبراز النقاط السود ، والتضخيم لحركات الرفض والخروج ، والعناية بفكرها وطروحاتها ، أو بمحاولة محاصرة اللغة العربية ، التي تعتبر من أهم أدوات التوصيل والنقل التراثي ، وذلك بتسييد العامية ، والتشجيع عليها ، إلى درجة الكتابة بها ، وإلغاء الحرف العربي من لغات شعوب العالم الإسلامي ، الذي يشكل حلقة التواصل الأساسية مع الموروث الثقافي والحضاري ، لقطع الجيل عن ماضيه ، وعزل اللغة العربية عن المعاهد ، والمدارس ، والجامعات ، وتدريس العلوم باللغات الأوروبية ، في محاولة ماكرة للتفريق بين لغة العلم - وهي طبعاً الأوروبية لأنها لغة المنجزات العلمية الحديثة في الهندسة، والطب ، والعلوم ، والحاسبات الالكترونية ، فالكتب المدرسية والمصادر والمراجع لاتتحقق إلا بها ! -وبين لغة الدين ، وهي العربية التي يجب أن تحاصر في المساجد والمعابد وأداء المناسك والشعائر ! وترسيب القناعة بأن العربية هي من أسباب التخلف العلمي في العالم الإسلامي ، وحتى تتم التنمية ويحصل النهوض لابد من لغة للمعهد ، وهي الأوروبية ، وأخرى للمعبد ، وهي العربية ، وبذلك تكون الأوروبية لغة العلم ، وتنتهي العربية إلى ألفاظ عبادية نفتقد معانيها شيئا فشيئا ، لقلة الاستعمال ، وتنزوي في المعابد ، شأنها شأن اللغات القديمة كالسريانية وغيرها ، التي اقتصرت في نهاية المطاف على رجال الدين وبعض زوار المعابد الذين يرددونها بلافهم ولا إدراك . والمشكلة أن هذه المحاولة الماكرة بدأت تتسرب إلى رأس كثير من الذين يشغلون مناصب مؤثرة في صنع القرار التربوي ، والسياسي ، في العالم الإسلامي . ولعلها في مغرب العالم الإسلامي أكثر وضوحاً وبروزاً منها في مشرقه .

وأكتفي في هذا المجال بالإشارة إلى أسبوع المحاضرات الذي نظمه

المستشرقون المقيمون في تونس في معهد قرطاج التبشيري منذ سنة ١٩٠٧ ، وأصدروا فيه بيان موت اللغة العربية ، والذي أعلن أن الشعوب المغربية لايمكن لها أن تحقق التقدم ، إلا من خلال تخليها عن اللغة العربية ، واعتناق الفرنسية ، كوسيلة للثقافة والحضارة والعلم . هذا من جانب ومن جانب آخر نرى المحاولات المستميتة لإحياء اللهجات واللغات القديمة ، التي توشك على الانقراض ، ومحاولة إحلالها محل العربية ، وإقامة كراسي في الجامعات والمعاهد الأوروبية لإحيائها ، وتقديم رسائل الماجستير والدكتوراه في دراساتها ، ومحاولة وضع معاجم لها ، ولعل قسم دراسات اللغة البربرية الذي أقامته فرنسا في السوربون مؤخراً خير شاهد لذلك ، فالعربية لاتصلح لغة العلم ، أما اللغات المنقرضة التي تم إحياؤها لمحاربة العربية وإثارة النعرات الإقليمية ، التي تمزق عالم المسلمين ، فتقام لها المراكز وتؤسس لها المعاهد ، وتوضع لها المعاجم !

يضاف إلى ذلك تشجيع النماذج والأعمال الفكرية التي تسير وفق النمط الغربي ، أو تحاكي مناهج الغرب ، وتغادر أصولها المنهجية ، ونسقها الثقافي ، باسم الحداثة والتجديد ، والتخلص من قواعد اللغة ، التي تحبس انطلاق المعاني ، وعمود الشعر التقليدي الذي يحول دون الدفقة الشعورية ، والترويج لأصحاب هذا اللون من الإنتاج الفكري ، واعتبارهم طلائع التحرر والتقدم والتنوير .

والحقيقة التي لامناص من الاعتراف بها ، أن إنتاج المستشرقين الذي يملأ الساحة الفكرية والأكاديمية اليوم ، ويشكل المرجع والمصدر والمنهج ، جاء ثمرة لغيابنا العلمي ، وتخاذلنا الثقافي ، ومواجهاتنا العابثة التي لم تكلفنا شيئا . . اكتفينا بالجلد ، والإدانة ، والتفاخر ، والتعالي بالأصوات ،

والخطب الحماسية ، بينما انصرف المستشرقون للإنجاز والإنتاج ، والتصنيع الفكري ، والتسويق في بلادنا الخالية من إنتاجنا . . فنحن نحاول أن نغطي عجزنا بإلقاء التبعة على الآخرين ، وبقيت أنظارنا موجهة إلى الخارج ، دون أن ننظر ، ولو مرة واحدة ، إلى الداخل الذي استدعىٰ ذلك الخارج ومكن له .

لقد نشر المستشرقون ، وحققوا عدداً ضخماً من المؤلفات العربية ، لاتزال مرجعاً للباحثين والدارسين من الأوروبيين ، والعرب أنفسهم . . ولم يكتفوا بالتحقيق والنشر لأمهات الكتب ، في السيرة ، والتاريخ ، وعلوم القرآن ، والتراجم ، والملل والنحل ، والنحو ، والتفسير ، بل تجاوزوا ذلك إلى التأليف في الدراسات العربية والإسلامية ، حتى بلغ عدد ما ألفوه في قرن ونصف ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ـ ستين ألف كتاب في التاريخ والشريعة ، والفلسفة ، والتصوف ، وتاريخ الأدب ، واللغة العربية .

ولايزال تاريخ الأدب العربي « لكارل بروكلمان » ، مرجعاً لايستغني عنه أي باحث في الدراسات العربية والإسلامية !

ولا يقتصر هذا الكتاب على الأدب العربي ، وفقه اللغة ، بل يشمل كل ماكُتب باللغة العربية ، من المدونات الإسلامية ، فهو سجل للمصنفات العربية ، المخطوط منها والمطبوع . وقد عمل به المؤلف نصف قرن تقريباً .

ولابد أن نشير هنا أيضا إلى الأطلس الجغرافي التاريخي ، للشرقين الأدنىٰ والأوسط ، الذي هو قيد الإعداد الآن ، ويتوفر على إنجازه مجموعة من المستشرقين في ألمانيا الاتحادية ، ويشمل الأقطار الممتدة من السودان غرباً ، إلى

أفغانستان شرقاً ، ومن جنوب بلاد العرب ، إلى البحر الأسود في الشمال ، وخرائطه لاتتناول المواضع الجغرافية والتاريخية بالمعنى التقليدي ، بل تتجاوز إلى مواضع لم يسبق لأحد أن تناولها في الأطالس ، مثل : المدارس الفقهية ، والفتن السياسية ، وبعض مظاهر الاتصال ، وأماكن العبادة ، وتوزيع السكان . . وسوف ينتهي في أواسط التسعينيات .

ولا يتسع المجال في هذه العجالة ، للتفصيل ، في مجال الدراسات المتعددة الأخرى ، والمعاجم ، والترجمات ، من العربية إلى اللغات الأوروبية . . فماذا فعلنا نحن إذاما قيس إنتاجنا لتراثنا بإنتاجهم لتراثنا !؟ إننا مازلنا نستغرق طاقاتنا كلها في التهجم على الآخرين دون إنتاج مقدور .

ويضاف إلى ذلك : إصدار أكثر من خمسمائة مجلة تتعلق بالاستشراق ، وثلاثمائة أخرى متخصصة به ، إلى جانب ذلك العدد الهائل من الكتب والأبحاث ، والدراسات ، والمقالات ، التي تصب على رأس أبناء المسلمين ، سواءً عن طريق الترجمة ، أو التمدرس على اللغات الأصلية للمستشرقين ، وفي مؤسساتهم ، ومعاهدهم ، أو مايمكن أن يتم عن طريق الابتعاث العشوائي ، غير المخطط ، أو المبرمج ، من عمليات التأثير والنقل الثقافي ، وإيجاد المعابر والجسور للوصول إلى المعاهد ، والجامعات ، والمناصب المؤثرة في العالم الإسلامي ، ووقوعه في دائرة التحكم والاحتواء الثقافي .

ونحن هنا في العالم الإسلامي لانقتصر على الابتعاث العشوائي إلى جامعات ومعاهد الغرب ، بدون أن نزود الطالب بدليل فكري ، ومقياس ثقافي لكيفية التعامل مع ثقافة الغرب ، وإنتاجه الفكري ، بل نصر على تكريس حالة التخلف ، والتخاذل الثقافي ، أمام الآخرين . وبدل أن نقيم ندوات

ومؤتمرات تُطرح من خلالها مشكلات المبتعثين العلمية ، والفكرية ، والثقافية ، ونكون على إدراك مسبق بماتقدمه مراكز البحوث والدراسات والجامعات ، ومراكز الإعلام هناك ، ونفتش له على المتخصصين ، القادرين على معالجته ، ومناقشته مع الطلبة ، والمبتعثين ، وتبصيرهم بدوافعه ، وأهدافه ، ومنطلقاته ، وأغواره ، وكيفية التعامل معه ، وكيفية الإفادة من إيجابياته ؛ نقيم مؤتمرات لاتحادات الطلبة ، ونحمل إليها مشكلاتنا ، وقضايانا ، وخلافاتنا في العالم الإسلامي ، وإن لم توجد خلافات معاصرة ، نستنجد بالتاريخ ليمدنا بمشكلات فكرية ، وعقيدية ، مضت بخيرها وشرها ، وقد لايكون الطلبة سمعوا بها من قبل ، فنصبها فوق رؤوسهم ، لنمزق وحدتهم ونكرس خصوماتهم ، ونفرق جمعهم ، ونحضرهم ، شئنا أم أبينا ، ليكونوا ضحايا الاستشراق والغزو الثقافي .

والذي يراجع قوائم الخطباء ، والمتحدثين ، في تلك المؤتمرات من سنوات ، يراهم هم أنفسهم ، يصلحون لكل المناسبات ، وكل الموضوعات ، وكل المواسم ، وقد لايرى بجوار ذلك ، ندوة متخصصة بحاجات المبتعثين الأصلية ، ونوعية دراساتهم ، واهتماماتهم ، والمستقبل الذي نعدهم له ، ونطلبه منهم ، إلا مارحم الله .

فمتى نرتقي بندواتنا ومؤتمراتنا ، ونبصر الساحة الثقافية والفكرية ، التي يخضع لها هؤلاء الطلبة ، ونرسل لهم المتخصصين في العالم الإسلامي ، يلتقون بهم ، ويعالجون قضاياهم العلمية والثقافية ؟ فذلك أجدى من أن يبقى كياننا الفكري قائماً على مهاجمة الآخرين ، دون أن نقدم البديل ، وفي تلك الحال سوف ينتهي هجومنا إلى مصلحة الآخرين .

وهنا قضية قد يكون من المفيد أن نعرض لها ، ونحن بسبيل الكلام عن

بعض ملامح التحكم الفكري ، والاحتواء الثقافي ، الذي يمارسه الاستشراق ، في المعاهد والجامعات ، والأطر الأكاديمية ، والغزو الفكري ، في نطاق الإعلام والتشكيل الثقافي ، وهي قضية اللغة بشكل عام .

فمما لاشك فيه أن اللغة أمر كسبي ، بمقدور كل إنسان أن يتعلمها ويبدع فيها ، والواقع يؤيد ذلك ، ويؤكده ، على مستوى اللغات جميعاً . ولو أخذنا مايهمنا هنا ، اللغة العربية ، لأمكننا القول :

إن الكثير من أئمة ، اللغة بصرفها ، ونحوها ، وفقهها ، هم من الأعاجم ، الذين أسلموا وتعلموا العربية ، ولسنا بحاجة هنا ، لذكر أولئك الأئمة ، فالذي يمتلك حداً أدنى من الثقافة ، أو يستخدم القدر الأقل من المراجع اللغوية ، سيراهم موجودين أمامه باستمرار . . ولا أدري ، إذا افترضنا أن اللغة لايمكن معرفتها ، وإدراك أسرارها إلا من أبنائها ، ماذا سيكون موقفنا من الخطاب القرآني العالمي ، الذي يتوقف فهمه على معرفة اللغة العربية ، وإدراك معهود العرب بالخطاب ؟ وكيف يمكن أن يتم التكليف ، وتبنى أمة مسلمة ـ واللغة من أهم عوامل التفاهم والتواصل وبناء الثقافة ، وصياغة الشعور ، وترتيب التفكير ـ إذا قررنا أن اللغة وقف على أبنائها فقط ؟ ومامصير المكتبة اللغوية ، التي تعتبر مصدرنا ، إذا أسقطناها بسبب أن مؤلفيها من غير العرب ؟

لذلك نعتقد أن القول : بأن اللغة لايدرك أسرارها إلا أبناؤها فيه الكثير من التجاوز ، ومناقضة الحقائق الواقعة . . ولو أن إدراك اللغة على غير العرب مستحيل ، لكان الخطاب القرآني تكليف بما لايطاق ، وهذا مستحيل شرعاً وعقلاً .

وقضية أخرى نرى من الضروري التنبه إليها أيضاً ، وهي قضية الثقافة

الذاتية للأمة . . فالأمر الذي لابد من إيضاحه ابتداءً : أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة عالمية ، وأن الخطاب القرآني ، أو الخطاب الإسلامي ، الذي يشكلها خطاب عالمي ، وأن الحضارة الإسلامية جاءت ثمرة لمساهمات عالمية لكثير من الشعوب والأمم ، وكانت نتيجة للخطاب الإسلامي ، يصعب تقطيعها ، وفرز ألوانها القومية ، فهي إنسانية في دعوتها ، وهدفها ، ومنطقها ، وإنتاجها ، وإن كانت قاعدتها البشرية الأولى من العرب . .

لذلك فالتجاوز أكثر من اللازم في التأكيد على الخصوصية الثقافية ، يخشى أن يؤدي إلى نزع صفة العالمية ومحاصرتها ، ويغلق الطرق أمام انسلاك ، ومساهمة الشعوب البشرية الأخرى فيها ، وتعطيل التبادل المعرفي ، باسم التخوف من الغزو الفكري . وبذلك نعين الأعداء على الانتصار علينا .

أما النظر إلى موضوع التاريخ الإسلامي واعتباره هو الإسلام فأمر محل نظر . . فالمعروف أن مصدر التشريع في الإسلام هو القرآن الكريم ، وبيانه السنة النبوية ، وهو الحاكم على فعل البشر بالخطأ أو الصواب ، وأن التاريخ الإسلامي لايخرج عن اجتهادات بشرية في تنزيل القيم على الواقع ، أو في تحويل القيم إلى فعل ، قد تخطىء وقد تصيب ، مثله مثل أي اجتهاد بشري فكري ، أو فقهي آخر . . فاعتبار التاريخ الإسلامي هو الدين ، وهو مصدر التشريع والأحكام ، فيه الكثير من المجازفة . . فالتاريخ الذي هو وعاء الحياة الإسلامية العملية ، في استجابتها للقيم الواردة في الكتاب والسنة ، هو محل العبرة والعظة والدرس ، وفيه من السلبيات والإصابات ، التي كان فيها عدول عن القيم ، مايجب تجنبه ، وفيه من الإنجازات العظيمة ، المتسقة مع القيم ، مايجب الاهتداء والاعتزاز به . . وتبقى القيم هي الضابط ، وهي الحاكم ، على تصرفات البشر ومسالكهم . . وحبنا للتاريخ ، وانتصارنا له ،

لايجوز أن يجعلنا نتجاوز هذه الحقيقة . وكم ستكون الخطورة كبيرة إذا لم نضبط التاريخ ، ونحكم عليه بالقيم ، من التفسيرات والإسقاطات التاريخية ، التي يحاول أعداء الإسلام توظيف التاريخ لها اليوم ، وكم ستكون الخطورة أكبر ، إذا أصبح التاريخ ديناً ، وتفسيره ملزماً ، واعتبر النص والفعل التاريخي ، كالنص الإلهي .

وقد يكون الدافع لذلك كله ، غياب روح النقد، والخوف من الاعتراف بالخطأ ، الذي مايزال يشكل المناخ العقلي المغشوش لكثير منا، ذلك أن هذا المناخ هو السبب وراء سقوطنا في الفخاخ المنصوبة لعقولنا، بأيد ماهرة من المستشرقين، الذين أدركوا ذلك فأتقنوا فن المديح، والإشادة بحضارتنا وتاريخنا، الأمر الذي حرك مكامن الفخر فينا، وساهم بحالة الاسترخاء ، والسبات العام، والاكتفاء بإنجاز الآباء والأجداد ، وأدى إلى شلل الأجهزة الفكرية، عن معالجة الحاضر، واستشراف المستقبل ، فأصبح حالنا كما يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله : شبيه بحال ذلك الفقير الذي لايجد مايسد به الرمق اليوم، عندما نتحدث له عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إننا بذلك الحديث نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر، يعزل فكره مؤقتا ، وضميره عن الشعور بها، إننا قطعاً لانشفيها ، فكذلك لاتشفى أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه .

كان هذا حال المستشرقين المداحين الذين قصوا علينا تلك النشوات التي تخامر عقولنا، حتى تتعلق عيوننا على صورة سامرة لماض مترف .

وكثيراً ماكان المديح أو حتى إعلان اعتناق الإسلام ، مدخلاً، ووسيلة تعتبر الأخطر للدخول علينا، وتخريب ثقافتنا من الداخل، لأن المديح حال بيننا وبين البصارة الصحيحة للأمور، وعطل فينا أجهزة الاستقبال، والفحص،

والاختبار تحت عنوان : الخير ماشهدت به الأعداء .

لقد عطل فينا هذا الشعار الاستجابة للمنبهات الحضارية إلى حد بعيد ، وقبلنا من المداحين كل شيء تقريباً . . ولعل إصابات المداحين، كانت هى الأخطر في النهاية، خاصة عندما نكتشف أن دخولهم في الإسلام كان ممراً إلينا ، وليس حقيقة .

ونستطيع القول : بأن الحملات الاستشراقية بعامة، لم تتمكن من القضاء على ثقافتنا، وإن ألحقت بها بعض الإصابات، التي يمكن اعتبارها من قبيل الأذى ﴿لن يضروكم إلا أذىً﴾ (آل عمران : ١١١) ، وأن معظمها كان إلى حدٍ بعيد أشبه بالمنبهات الحضارية . . ورب ضارة نافعة .

إن عمليات الاستشراق والتغريب ، لم تستسلم، ولم تلق السلاح . . لكن لما أعياها السعي ، فبدل أن تقر بفساد نظرياتها ، وطروحاتها ، وعدم إمكانية القبول لها في العالم الإسلامي، تحاول اليوم أن تعتبر، أن المشكلة والعلة في بنية العقل المسلم أصلاً ، لتأتي على البنيان الإسلامي من القواعد، وترسب في النفوس، أن السبب في التخلف ، والعجز ، والتخاذل الثقافي ، وعدم القدره على الإبداع ، وقبول الفكر الغربي ، هو في بنية هذا العقل ، وتكونه ، وميراثه الثقافي .

فهو عقل مولع بالجزئية ، وعاجز عن النظرة الكلية للأشياء ، وهو عاطفي يحب الإثارة والانفعال ، ويعجز عن الفعل ، وهو محكوم أيضا بموروث ثقافي ، لا يستطيع الفكاك منه ، فهو لا يفكر بطلاقة، وحرية، لأنه محكوم بوحي مسبق، وهو يقوم على منهج التفكير الاستنتاجي ، ويعجز عن التفكير الاستقرائي ، وهو معجب بالمنهج البياني ، وعاجز عن المنهج البرهاني ، وهو يخلط بين الواقع المعاش ، والمثال الخيالي، وصاحبه يحب الثأر ، ويغرق في الملذات !

وأن الاسلام الذي يكوّن هذاالعقل، هو دين أمر ونهي، وزجر وكبت للحرية، وإلغاء للاجتهاد ، الأمر الذي أدى به إلى التقليد وفقدان الشخصية ، والقدرة على الإبداع، وأن العنصر العربي مادة الإسلام الأولى ، عنصر متخلف بفطرته ، وطبيعته الجنسية، والمناخية، وأن دور العلماء المسلمين تاريخيا اقتصر على النقل لميراث الحضارات الأخرى ، وأن علاج الأمة المسلمة، سوف لايتحقق ، إلا بإعادة بنية العقل العربي وفق الأنموذج الغربي .

لذلك رأينا الكثيرمن الدراسات اليوم لخريجي المدرسة الاستشراقية تتجه إلى طروحات ، من مثل : بنية العقل العربي ، ونقد العقل العربي ، وخطاب إلى العقل العربي . . . . إلخ ، وأن أول مانلاحظ أن منهج النقد يتم طبقاً لآليات ومعايير وطروحات الفكر الغربي ، وينطلق غالباً من الترسبات التي تركها الاستشراق في ضحاياه، لذلك نراها تتخبط كثيراً في الخلط بين العقل كآلة للتفكير، وبين الإنتاج الفكري لذلك العقل.

وقد يلفت انتباهنا أحياناً بعض القضايا التي يطرحونها، لكن لا نلبث أن نطلع عليها في مصادرها الاستشراقية ، فنتأكد من جديد أن هؤلاء التلامذة لاتخرج مهمتهم عن الشحن من هناك ، والتفريغ هنا . لذلك نراهم يخطئون في أبسط القضايا، إنهم يخطئون حتى في الأسماء العربية الواضحة ، لأنهم يقرأونها قراءة أعجمية استشراقية، ولا نرى هنا أننا بحاجة إلى إيراد الأمثلة .

وخلاصة القول في هذا الأمر : إن مناهجنا في المعالجة لايزال يعوزها الكثير من التأصيل، والتخطيط والتقويم، ودراسة الجدوىٰ ، وطبيعة التناول ومساحته ، والتنبه إلى مخاطر المستشرقين الذين يمدحون الإسلام، ويحركون غرائز الزهو والافتخار عند المسلمين تجاه الماضي، ليتسللوا من خلالها ، وهذا هو الأخطر لأنهم يساهمون بحالة الخدر العام ، من أولئك المستنفرين ، الذين

يستثيرون فينا غرائز الدفاع عن النفس، وحماية الذات ، ذلك أن المديح إنما يكون في كثير من الأحيان تحويلاً إلى الماضي، والاستغراق فيه على حساب مشكلات الحاضر ، واستشراف آفاق المستقبل .

صحيح أن الماضي هو الذي يدعم التماسك الثقافي ، ويشكل الجذور التي تحول دون الاقتلاع، إلا أن هذا الماضي بالرغم مما قدم في إطار تحقيق الذات ، وضمان تماسكها ، كاد ينقلب الاقتصار عليه إلى ظاهرة مرضية ، تحبس الإنسان في ملاجئها، وتحول بينه وبين النهوض، وذلك عندما يصبح الاستغراق في التشبث بالماضي صارفاً للإنسان عن صناعة حاضره ومعالجة مشكلاته، والتفكير في مستقبله .

وحتى نكون في مستوى الحوار الفكري ، والتبادل المعرفي ، ونوقف فعلاً الغزو الفكري ، والإغراق الاستشراقي ، لابد لنا بدل البكاء على الأطلال ، والاكتفاء بجرعات الفخر والاعتزاز بالماضي ، أن نكون أيضاً قادرين على امتلاك الشوكة الفكرية ، أن نكون قادرين على الإنتاج الفعلي ، لمواد ثقافية تمثل ثقافتنا ، وتأتي استجابة لها ، وتغري الناس بها ، وبذلك وحده نكون في مستوى الحوار ، والتبادل المعرفي . . فالمواجهة لاتكون بإدانة الآخرين ، والنظر إلى الخارج دائما ، وإنما تبدأ حقيقة من النظر إلى الداخل . . أولاً لملء الفراغ ، بعمل بنائي مستمر، وتحصين الذات ، وتسليحها بالمقاييس الثقافية السليمة ، وإنتاج مناهج، وآليات للفهم ، تأتي وليداً شرعيًّا لثقافتنا .

ذلك أن المناهج وآليات الفهم، التي تحكم الكثير من جامعاتنا ، ومعاهدنا ، لاتزال من صناعة الفكر الغربي ، انتهت إلينا بسبب التخاذل الفكري الذي نعيشه . . وتلك المناهج هي ثمرة لتشكيل ثقافي معين ، تصنعه وتُصْنَع به ، غير منفكة عنه . . لذلك فمن الصعب نقلها واستخدامها في إنتاج

ثقافي آخر ، والاطمئنان عندها إلى نتائج الفكر .

وبعد :

فإن الكتاب الذي نقدمه اليوم في السلسلة للأخ الدكتور عبد العظيم الديب حول المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي ، والذي تعقب فيه بعض المستشرقين في واحد من أهم مجالات التراث الإسلامي ، في التاريخ وهو المجال الأخطر ، فقدم نماذج لفساد المنهج ، وسوء المقصد ، وهو أحد المهتمين بالتاريخ رغم اختصاصه في الفقه وأصوله ، بل لعل اختصاصه بالأصول هو الذي منحه القدرة على الكَلام في المنهج ، ومكنه من هذا التتبع والتعقب الذي يحتاج إلى الكثير من الدأب والصبر والتدبر ، ذلك أن التدليل على فساد المنهج ، يغني عن متابعة النواتج الفكرية وينزع عنها صفة العلمية والحياد بشكل عام .

وإذا كان كتاب الأمة الخامس الذي بحث فيه الدكتور محمود حمدي زقزوق : « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري » يمكن أن يصنف في إطار التنظير ، فإن كتاب الدكتور عبد العظيم الذي يقدم النماذج العمليه في إطار التاريخ ، يعتبر ضميمة مكملة لابد منها ، نسأل الله أن ينفع بها ، ويجزي مؤلفه خير الجزاء هو حسبنا ونعم الوكيل .

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، ﴿ يٰأَيُّها الَّذِين آمَنُوا اتقوا اللَّه حَقّ تُقَاته وَلاَتَمُوتُنّ إلاَّ وَأَنتُم مُسلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) ﴿ يٰأَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا ربّكُم الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفس وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رَجالاً كثيراً وَنَسَاءً وَاتَّقُوا الله الَّذِي تساءلون بِهِ ، والأرحَام ، إنَّ الله كَانَ عَلَيكُم رَقيبًا ﴾ (النساء : ١) ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَولاً سَديدًا يُصلِح لَكُم أَعمَالكم وَيَغفِر لَكُم ذُنوبكم ، وَمَن يُطِع الله وَرَسُوله فَقَد فَاز فَوزاً عَظيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠) .

اللهم إنا نبرأ إليك من حولنا وقوتنا ، ونلوذ بحولك وقوتك ، سبحانك ، لا حول ولا قوة إلا بك . اللهم إنا نعوذ بك من الخطأ والخطل ، والخلل والزلل ، وسيء القول والعمل . ونسألك سبحانك أن تعيننا على إخلاص القلب وسلامة القصد ، وأن تجعل عملنا وقولنا خالصا لوجهك ، نقيا مقبولاً . آمين .

ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك ، وخاتم رسلك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الأبرار الطاهرين .

وبعد . . . . .

لقد شغل أمر المستشرقين مساحة عريضة ، من الخريطة الفكرية لأمتنا ، وكثرت البحوث المتعلقة بالاستشراق والمستشرقين ، وتنوعت مابين تعريف بهم ، وتأريخ لحركتهم ورجالهم ، ومابين ترجمة لأعمالهم وبحوثهم ، وتمجيد لها وإشادة بها ، ومابين ردّ عليهم ، وتصويب لأخطائهم . .

ولكن البحث الذي نتقدم به اليوم يختلف عن كل ذلك ، حيث جعلنا كل همنا وكدنا عرضَ أعمال المستشرقين على ميزان المنهج العلمي ، وقياسها بقواعده وأصوله ، لنرىٰ مدى وفائهم والتزامهم بهذه القواعد والأصول ، لم نلتفت إلى تصحيح أخطاء ، أو الرد على تزييف ، أو تصويب تحريف ، إلا بمقدار مايكون لازماً لبيان موضع الخلل في المنهج ، وخيانته ، وأن الصواب كان أمامه ، ولكنه حاد عن المنهج ، فبعد عنه ، أو بالأحرى تعمد ترك المنهج ، لكيلا يصل إلى صواب لا يريده !!

ولقد التزمت في هذا البحث ، أن يكون مؤيداً بالأدلة والبراهين الناطقة بما نقول ، فلا نذكر أي لون من الخلل في المنهج ، إلا ونضرب له مثالاً من كتاباتهم ، وأبحاثهم ، واعتمدنا في ذلك على أعمال مستشرقين كبار ، ممن عرف بالقدرة العلمية ، بل واشتهر بالنزاهة والتجرد .

فنحن إذا لاننا قش جزئيات ، ولا نصوب أخطاء ـ وإن جاء ذلك عرضاً ـ فقد قام بذلك كثير من الكرام الكاتبين ، والأساتذة الباحثين .

بل نحن نقول : كفى هذا . ونردد مع الإمام الجليل ابن العربي في العواصم من القواصم : « لا نُذهب الزمان في مماشاة الجهال ، فإن ذلك أمرٌ لا آخر له » .

فإذا ثبت أن أعمال هؤلاء المستشرقين ، لايصح أن تسمى علماً ، ولا يمكن أن تسمىٰ بحثاً ، ولا قيمة لها في ميزان المنهج العلمي ، ولا ثقل لها في كفته . إذا ثبت هذا فأي جدوى لمناقشتها ، أو تصويبها ؟ وكفى ما كان .

بل نحن نتطلع إلى إسقاط هذه الأعمال ، من قوائم المصادر والمراجع ، للأبحاث العلمية الجادة ، والأطروحات بالدراسات العليا .

فكما نرفض منهجيّاً أن يعتمد الباحث على المصادر الثانوية ، ونطالبه بالرجوع إلى المصادر والمراجع الأصيلة ، فكذلك ينبغي أن نرفض اعتماد هذه الأعمال الاستشراقية مصادر ومراجع ، يتكىء الباحث على الحقائق التي يأخذها منها ، ويبني عليها نتائجه .

وبدهي أننا لا نقول بعدم قراءة أعمال المستشرقين ، فلم يدر هذا بخلدنا ، فليقرأ من شاء ، ولكن نضعها موضعها ، فلا نتخذها مرجعاً ومصدراً ، إذا ثبت ألا ثقة بما تنتهي إليه من نتائج ، أو تصدره من أحكام .

وبذلك ننفض أيدينا من هذه القضية ، ولا نقول مع الكرام القائلين بإنشاء الأقسام والمراكز بالجامعات لدراسة أعمال المستشرقين ، « فنُذهب الزمان في مماشاة الجهال » .

وإذا بدا هذا لوناً من التشدد ، فدعونا نتساءل : لمن نصوب أعمال المستشرقين ثم كم من الزمن يلزم لذلك ؟ ثم كم مجلدا يمكن أن تكفى لذلك ؟

إن المستشرقين لا يكتبون لنا ، وإنما يكتبون للمثقف الغربي ، فهل إذا

قمنا بتصويب أعمالهم ، ونشرناها في لغاتهم ، سيقرأها المثقف الأوروبي ، ويسمع لنا ، ويأخذ عنا ، ويترك بني قومه ؟

أعتقد أن الأمر أوضح من أن يجاب عليه !!

ثم إذا كانت أعمال المستشرقين تقدر بنحو ستين ألف بحث ، فكيف نحاصر كل هذا الطوفان ؟

لقد غبرنا زمناً ، وقضينا عمراً ، وأعمال المستشرقين مثل جبل المغناطيس ، تجذبنا إليها جذبا ، وتأسرنا أسراً ، وتجعلنا ندور في فلكها ، وأعتقد أنه آن الأوان ، وشب عمرو عن الطوق ، فإذا أردنا أن نخاطب المثقف الغربي ، فعلينا أن ندرس أقرب السبل ، وأنجع الوسائل للوصول إليه ، وتلك هي الغاية التي تستحق أن نحتشد لها ، ونحكم تدبيرها .

***

والله الكريم نسأل أن يجعل عملنا وقولنا خالصاً لوجهه الكريم ، ودائماً وأبداً نبرأ من حولنا وقوتنا ، ونلوذ بحوله سبحانه وقوته ، فلا حول ولا قوة إلا به جل علاه . وهو نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور عبد العظيم محمود الديب

المنهج في كتابات الغربيين

كنا نظن أننا فرغنا من هذه القضية ، قضية المستشرقين ، ووضعنا أعمالهم وجهودهم في مكانها الطبيعي ، ونفضنا أيدينا منهم ، وانتهينا من اللجاجة في أمرهم . وأن أهل الفكر والرأي عندنا اتجهوا إلى قضايا أمتنا ، يعالجونها من مركز الدائرة ، دائرة العمق الحضاري لأمتهم ، بما لهذه الحضارة من خصائص ومميزات ، تفردت بها ، وسمت على غيرها ، ومن موقع ما تعانيه أمتنا من هذا الشتات الثقافي ، والضياع الفكري ، والتمزق الاجتماعي .

نعم كنا نتوقع أن أهل الفكر والرأي عندنا قد أدركوا موقع أمتهم ، وعرفوا قدرها ، ومكانتها ومكانها ، ولكن للأسف ـ بحكم المعايشة اليومية داخل الحصن الثقافي لأمتنا ـ مازلنا نطّلع على عجب عاجب ، مازلنا نرى من يقف في جمع حاشد من (الأكاديميين) ، ويصيح على رؤوس الأشهاد : (إن المستشرقين هم الذين أنقذوا أمتنا من جهالتها ، وأخرجوها من ضلالتها) ، ثم اندفع مطالبا بنقل كل من ينقد المستشرقين ، إلى مصحة للعلاج النفسي !! .

ومازال فينا من أهل الفكر والرأي من يخاطب جمهور المثقفين ، قائلا : (إننا سائرون إلى حضارة عالمية واحدة ، وإلى فكر عالمي واحد ، وإلى ثقافة عالمية واحدة) !! .

مازال فينا من هؤلاء كثيرون . . . . . .

نعم !! بكل أسف مازالت (حصوننا مهددة من داخلها)[1] . .

---

(١) هذا التعبير عنوان لعدة مقالات قيمة لأستاذنا الجليل محمد محمد حسين رحمه الله وهو أحد المجاهدين الذين وقفوا في وجه الغزو الفكري ، والاستلاب الحضاري وقد جمعت هذه المقالات في كتاب بالعنوان نفسه .

إلى المستغربين

ومن هنا من داخل الموقع الفكري ، والحصن الثقافي الذي مازال مهددا من داخله يجيء كلامنا موجها إلى (المستغربين) لا إلى المستشرقين ، إلى جماعة من أبناء أمتنا ، ينطقون لغتنا ، ويتكلمون بلساننا ، ولهم ملامحنا وسمتنا ، ولكن قلوبهم غير قلوبنا ، فقد استُلبوا حضاريا وثقافيا ، وسقطوا في أسر الحضارة الغازية)[1] .

فإلى هؤلاء نتوجه بكلامنا .

نؤكد ذلك حتى لا يقول قائل : ألم تفرغوا من المستشرقين بعد؟ أمازلتم مشغولين (بسب وشتم المستشرقين ؟ إنكم مازلتم تبددون الجهود، وتضيعون الأوقات ، في الحديث عن المستشرقين ، والأولىٰ أن تبذلوا جهودكم فيما ينفع من بحث مشكلات أمتكم وقضاياها . . . . .)

لا يقولن ذلك قائل ، فنحن لا يعنينا أمر المستشرقين ، وإنما مأساتنا في (المستغربين) الذين مازالوا ـ رغم كل ما انكشف من خبء المستشرقين ومستـورهم ـ يحملون أفكـارهم ويعيشـون بمفـاهيـمهـم ، وهؤلاء (المستغربون) هم الذين ورَّثهم الاستعمار ـ قبل أن يرحل عنا ـ قيادة الفكر ،

---

(١) هذا الوصف الذى أطلقه على هؤلاء (المستغربين) ليس من عندي ، وإنما هو ـ لحسن الحظ ـ وسام أهداه اليهم المستشرق الفرنسي المعاصر (جاك بيرك) حين قال في محاضرة له بالدوحة : (في العشرينيات عندما بدأت المقاومة بقصد تصفية الاستعمار اكتشفت أو بدأت ظاهرة جديدة ، وهى الانغماس الحضاري ، أي أن تسقط كضحية في أغوار حضارة الغير ، أي أنك تصبح عضوا في حضارة الغير من خسران حضارتك الشخصية ومن العجيب أن تبدأ هذه الظاهرة في وقت ظهور المقاومة للاستعمار) . أ. هـ (ولا تعليق) .

والتثقيف ، والإعلام ، جيلا بعد جيل ، ومكن لهم من وسائل القيادة وسلطانها .

هؤلاء (المستغربون) هم مأساتنا ، هؤلاء الذين ديدنهم (الاستخفاف) بتراث أمتنا ، بتراث كامل متكامل ، بلا سبب ، وبلا بحث وبلا نظر[1] . . . وأبشع من ذلك هذا الإرهاب الثقافي الذي يمارسونه بلا هوادة ولا رحمة ، هذا الإرهاب الذي جعل ألفاظ (القديم) و(الجديد) ، و(التقليد) و(التجديد) ، و(التخلف) و(التقدم) ، و(الجمود) و(التحرر) ، و(ثقافة الماضي) و(ثقافة العصر) - سياطا ملهبة : بعضها سياط حث وتخويف لمن أطاع وأتى ، وبعضها سياط عذاب لمن خالف وأبى .[2]

من أجل هذا نكتب عن المستشرقين ، وفساد مناهج المستشرقين ، لا أملاً في أن يثوب هؤلاء (المستغربون) ، أو تنقشع عنهم الغشاوة ، فهم (سادة) و (قادة) وأصحاب (جاه) و (سلطان) (وطيلسان) ألفوا أن يسمع لهم الناس ، ويطيعوا ، وأن يوجهوا الفكر والرأي ، فكيف يسمعون أو يقرأون ؟؟ .

وإنما الأمل في ناشئة من أبناء أمتنا ، مازالوا يتحسسون طريقهم ، عسى ألا يفتنوا بما افتتن به بعض (الأساتذة الكبار) فمن حق هذا الجيل الناشىء ، وهذا النبت البازغ ، أن نبصره بقضية أمتنا ، حتى يعرف خَبْأها ، ويدرك سرها ، فلا تخدعه عن نفسه وحقيقته تلك (الصفوة) التي (انبهرت) بالغرب ، (فاندحرت) وظنت هذا الاندحار هو الرقي بعينه ، فراحت لأكثر من قرن

---

(١) هؤلاء الذين يستخفون بتراث أمتنا ، لو سألت أحدهم ماذا يعرف عن هذا التراث ؟ لوجدت أنه لم يقرأ عنه إلا صفحات من كتابات المستشرقين ، ولو أردته على أن يقرأ صفحة من كتاب من هذا التراث الذي يستخف به - لرأيته عاجزا كل العجز ، ويغطى عجزه بكبرياء وترفع عجيب .

(٢) شيخنا الجليل محمود محمد شاكر : لمحة من فساد حياتنا الأدبية : ١٢٢ ، ١٢٣ ، وهى رسالة جعلها مقدمة لكتابه المتنبي (بتصرف يسير) .

ونصف تجذب أمتنا وراءها ، ولولا أصالة راسخة ، وقوة ذاتية في هذه الأمة ، لمسخت كما مسخ هؤلاء (المستغربون) ولكن شاء الله أن تستعصي أمتنا على المسخ والتشويه فغدًا - إن شاء الله - تعلو رايتها وتحمل رسالتها ، رسالة السماء ، إلى كل فجاج الأرض تحقيقا لوعد الله ، ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم .

أهداف المستشرقين

تقدر الأبحاث والكتب التي كتبها (المستشرقون) عن الإسلام ، في الفترة من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، بنحو ٦٠٠٠٠ ستين ألف كتاب . فلم كل هذا الاهتمام ؟؟ لم كل هذا العناء ؟؟ ستون ألف بحث وكتاب ، في تاريخ الإسلام ، وعقائده ، ومذاهبه ، وفقهه ، وسيرة نبيه . . الخ . . لم كل هذا ؟ !! .

إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى غايتين :

أولاهما - حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام ، فيؤمن به ، ويحمل رايته ، ويجاهد في سبيله ، كما كان من المسيحيين في الشام ، ومصر ، والشمال الإفريقي ، وأسبانيا ، من قبل ، حين دخل الإسلام هذه الأصقاع ، فدخل أهلها في دين الله أفواجا ، وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف ، وحماته والمنافحين عنه .

(بل أعجب من ذلك أيضًا أن دخلوا في العربية دخولا غريبًا ، وصار لسانهم لسانها ، بل أعجب من ذلك أيضًا ، أن خرج من

أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار ، الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم[1]) .

كانت هذه غاية الاستشراق منذ نشأته ، محاولة تبشيع صورة الإسلام وأهله ، حتى لا يتتابع من بقي من رعايا الكنيسة على الدخول في الإسلام مثلما فعل أضرابهم من أهل الشام ومصر والشمال الإفريقي ، والأندلس .

كان هذا الفزع يسوق حركة الاستشراق منذ نشأته ، ويوجهه لتعبئة أتباع الكنيسة ، ورعاياها ، وتجييشهم ، ووضعهم تحت السلاح دائما .

وثانيتهما[2] : (الغاية الثانية للاستشراق) هى معرفة الشرق ، ودراسته ، أرضه ، ومياهه وطقسه ، وجباله وأنهاره ، وزروعه وثماره ، وأهله ، ورجاله ، وعلمه وعلمائه ودينه ، وعقائده ، وعاداته ، وتقاليده ، ولغاته و . . . . . و . . . . . كل ذلك لكي يعرف كيف يصل إليه ، فقد ظلت دار الإسلام مرهوبة مخوفة ، لم تستطع الصليبية المقهورة أن تحاول ـ مجردة محاولة ـ اختراقها لعدة قرون ، وكانت المناوشات ، والاحتكاكات على الثغور والأطراف تحسم دائمًا لصالح الإسلام والمسلمين . . ولما حاولت الصليبية بجحافلها الغاشمة اختراق ديار الإسلام في مطلع القرن السادس الهجري ، رجعت بعد نحو قرنين (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ) من الزمان مقهورة مدحورة .

---

(١) محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٥٧ .

(٢) كان من غاية الاستشراق ، وهدفه أيضا نقل علوم الإسلام التي كانت مصباح النهضة الأوروبية وأساسها ، ولكن لم نعرج على ذلك في هذه العجالة ، لأنه ليس من موضوع هذه المقدمة .

ولكنها ما فتئت تدبر وتقدر ، وتحاول الالتفاف حول ديار الإسلام ، لما استعصى عليها اختراقها ، وكان الاستشراق هو رائدها الذي يرتاد لها الطريق .

(كان المستشرقون جند المسيحية الشمالية ، الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين ، في حياة بدأت تموج بالحركة ، والغنى والصيت الذائع ، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب ، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها ، وفي قلوبهم كل اللهيب الممضي ، الذي في قلب أوربة والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام)[1] .

ومن هؤلاء كان جيش من أهل الخبرة بكل ما في دار الإسلام قديمًا ، وما هو كائن فيها حديثًا ، من دقيق العلوم عند خاصة المسلمين ، إلى خفي أحوال المسلمين ، من عاداتهم ، ومعايشهم ، وطرائق أفكارهم ، وخصائص حياتهم ، إلى علم وثيق بشأن دولهم وأقاليمهم . وبلدانهم التي تغطي أكبر رقعة من الأرض .

وهم قد جمعوا كل ذلك، وعكفوا عليه ، وتأملوه ، ودرسوه ، ونظموه ورتبوه بعناية فائقة ، وبهمة وجلد وتنبه ونفاذ بصر .

فكل دارس منهم مأمون عند كل أوروبي ، من أول طبقة الرهبان ، والساسة إلى آخر رجل من جماهير الناس ـ مأمون على ما يقوله ، مصدق فيما يقوله . . . . . متصف بصفتين لابد منهما حتى يكون مأمونًا مصدقًا :

(الصفة الأولى) : أن في قلبه كل الحمية التى أثارها الصراع بين المسيحية المحصورة في الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق . .

(الصفة الثانية) : أن في صميم قلبه كل ما تحمله قلوب خاصة الأوروبيين

---

(١) محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٧٣ ـ ٧٤ .

وعامتهم وملوكهم ، وسوقتهم ، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حيازة كل ما في دار الإسلام ، من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة[1] . . . . . .

هكذا كان من عمل المستشرقين ، ارتياد ديار الإسلام و(معرفتها) و (التعريف بها) حتى يضمن للزحف الصليبي الجديد أن يسير على هدى وبصيرة .

وإذا كنا نقول هذا استنتاجًا صحيحًا ، من قراءة الوقائع والأحداث ومما تنطق به جولات الصراع الذي دار ـ ويدور ـ بين الصليبية ، وديار الإسلام ، إذا كنا نقول هذا استملاءًا من لسان الحال ، حال التاريخ القريب والبعيد ، فقد صدقه المستشرقون أنفسهم ، وقالوه بلسان المقال ، فهذا هو المستشرق الأمريكى (روبرت بين) يقول في مقدمة كتابه (السيف المقدس) : إن لدينا أسبابا قوية لدراسة العرب ، والتعرف على طريقتهم ، فقد غزوا الدنيا كلها من قبل ، وقد يفعلونها مرة ثانية ، إن النار التى أشعلها محمد لاتزال تشتعل بقوة ، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء)[2] .

وبهذه الصراحة أو أشد منها ـ إذا كان هناك أشد منها ـ يأتي قول الأمير (كايتاني) ذلك الأمير الإيطالي الذي (جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل ، لترتاد مناطق الفتح الإسلامي ، وترسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع كل الدوريات والأخبار الواردة عن حركة الفتح في اللغات القديمة . . واستخلص تاريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان (حوليات الإسلام) بلغ بها سنة أربعين هجرية . . قال هذا الأمير الذي استهلك كل ثروته الطائلة في هذه الأبحاث ، حتى أفلس تماما ، قال في مقدمة كتابه (حوليات الإسلام)

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) نقلا عن محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة : ٥٩٧ .

هذه : إنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سرَّ المصيبة الإسلامية التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ، مايزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمد ، ويدينون به نبيًّا ورسولاً)[1] .

فهو بهذا يعلن عن هدفه بغاية الصراحة والوضوح : (أن يفهم سر المصيبة الإسلامية) أي سر الإسلام ، . ومصدر قوته .

ويكتب المستشرق الألمانى (باولِ شمتز) كتابًا يتناول فيه عناصر القوة الكامنة في العالم الإسلامي ، والإسلام ، فيسمي هذا الكتاب (الإسلام قوة الغد العالمية) فلماذا كتب هذا الكتاب ، وقام بهذه الدراسة ؟ ، إنه لا يتورع أن يعلن صراحة وبدون مواربة عن هدفه ، الذي هو تبصير أوروبا الغافلة عن هذه القوة التي هي (صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها ، يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق ، الذي بدأ يصحو ، وينفض النوم عن عينيه ، فهل يسمع أحد ؟ . . هل من مجيب ؟) بهذه العبارة التى ختمها بذاك النداء الصارخ ، ينهي (شمتز) كتابه ، والكتاب كله تحكمه هذه الروح .

ولذلك حق للناشر الألمانى أن يقول عن هذا الكتاب (إنه يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوروبا بكل بساطة ، وفي غير اكتراث فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم « ١٩٣٦ م قبيل الحرب العالمية الثانية » في جبهة موحدة معادية للغرب . . وهذا الكتاب ، هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدي من أجل مصالح الغرب وحدها »[2] .

---

(١) بنت الشاطىء : تراثنا في الشرق والغرب ، محاضرات مطبوعة على الآلة الناسخة ألقيت على الدارسين بمركز تحقيق التراث القومي ونشره ، بالقاهرة عام ١٩٦٧ م ، ص ٧ - ١٠ .

(٢) من مقدمة الدكتور محمد البهي للكتاب ص ١١ ، والكتاب ترجمة الدكتور محمد عبد الغني شامة ، وصدر عن مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

ويكرر هذا المعنى نفسه (ألبير شاميدور) في كتابه (حمراء غرناطة) فيقول بعد أن تحدث عن عظمة الآثار الإسلامية في غرناطة : (. . إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع علم العالم في مائة عام ، كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضا في مائة عام ، قد ترك لنا في (حمراء غرناطة) آثار علمه وفنه .

(إن هذا العربي الذي نام نوما عميقا مئات السنين ، قد استيقظ وأخذ ينادي

العالم : « ها أنذا أعود إلى الحياة » . . فمن يدري قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب ، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية) .

ثم يقول : (لست أدعي النبوة ، لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها) .

ثم ينادي صارخا : (أبيدوا أشباح العرب في « الحمراء » . . أبيدوها قبل أن تبعث) !!! ثم يبالغ في الإنذار والتخويف فيقول : (هيهات أن نستطيع إلى ذلك سبيلاً)[1] !! .

هكذا بكل وضوح يكشف القومُ عن أهدافهم ، ولكن جماعة منا ـ عفا الله عنهم ـ مازالوا حتى يومنا هذا ، بل لحظتنا هذه ، يصفون هذه الأعمال بأنها (علمية) ، (أكاديمية) ، (فكرية) . . . الخ ويدبجون في الثناء عليها المقالات والكتب ويلقنون أجيالنا الناشئة ذلك .

ولعل ما يفصل بيننا وبين قومنا في هذه القضية هو قول (روجيه جارودي) ذلك الفيلسوف ، الذي كان زعيم المذهب الوجودي ومفسر طلاسم سارتر ضمير العصر على حد قول (فلاسفتنا) (العظام) ـ والذي كان مرشحا لزعامة الحزب الشيوعي ، قال : (لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ

---

(١) من كتابنا : أبو القاسم الزهراوي : ص ١١٠ وهذا من إحدى الدوريات المنشورة سنة ١٩٦٢ م عام تأليف الكتاب .

البداية ، إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية)[1] .

حول تطور الدراسات الاستشراقية

بعض بني جلدتنا حينما نضع أمامهم هذه النصوص الناطقة بأهداف المستشرقين ، الشاهدة على بعدهم عن العلم والبحث ، ومجافاتهم روح (الأكاديمية) والمنهج ، يقول : (ما لكم تتشبثون بهذه العبارات ، وتقفون عند هذه الأخبار ولا تتجاوزونها ؟؟ إن ذلك كان في القرن التاسع عشر ، وقبل القرن التاسع عشر ، كان في أيام الاستعمار ، وطغيان الاستعمار ، كان في أيام الصراع المحتدم ، بين الشرق والغرب أما منذ مطلع القرن العشرين ، فقد تطورت الدراسات الاستشراقية ، وصارت (علمية) (منهجية) تبحث عن العلم المجرد ، لذات العلم ، والمعرفة ، وانتهى عهد التهجم على الإسلام : نبيّه ، وقرآنه ، ورجاله ، وعقائده ، وحضارته ، لقد صارت الدراسات الاستشراقية آية في النزاهة ، وقدوة في الالتزام بالمنهج العلمي ، والإخلاص للبحث والتجرد للحقيقة !!! . . . . . كذا يقولون !!! .

وقد يكون هذا الكلام صحيحا في بعضه ، أعني أن أبحاث الاستشراق خلت من السب والشتم ، والتقبيح ، والتشنيع على الإسلام ، وأهله ، فذلك صحيح في جملته ، ولكن ذلك لم يكن بسبب التزام الاستشراق بالمنهج العلمي ، وقواعد البحث الأكاديمي ، ولكن لسبب آخر ، سنعرض له فيما بعد ، أما المنهج العلمي الصحيح ، والتجرد للبحث وخدمة الحقيقة فمازال -

---

انظر كتابه : مبشرات الإسلام ، عن مجلة الأمة القطرية الشهرية عدد ٢٤ ص ٢٣ .

وسيظل ـ الاستشراق بعيداً عنها ، لأسباب كثيرة بعضها راجع لطبيعة الاستشراق ، وهدفه ، ونشأته ، وبعضُها راجعٌ لعجزٍ طبعي فطري ، في هؤلاء الأعاجم يحول بينهم وبين امتلاك وسائل البحث في العلوم الإسلامية ، وأدواته .

ونستطيع ببساطة ويسر ، أن نُحيل هؤلاء، إلى ما عرضناه من شهادات المستشرقين وأقوالهم بألسنتهم ، وهم من المعاصرين ، في قرننا العشرين هذا ، بل منهم من عاش إلى قريب من أيامنا هذه .

وإن لم يكف ما تقدم ، فنضع أمام أعينهم ، ما كتبه الدكتور (جلوور) في كتابه : تقدم التبشير العالمي ، الذي نشره سنة ١٩٦٠ م ، قال : (إن سيف محمد والقرآن أشد عدو ، وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ، ومن أخطر العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن) ، وقال أيضًا : (القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات، ومن الشرائع والأساطير ، كما هو مزيج غريب للأغلاط التاريخية ، والأوهام الفاسدة ، وفوق ذلك هو غامض جدًا ، لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له) .

ثم ينتقد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : (كان محمد « صلى الله عليه وسلم » حاكماً مطلقًا ، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب ، أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء ، وكان مجبولاً على هذه الفكرة ، فقد كان عازماً ، على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه في هواه ، أما جيشه العربي ، فكان يتعطش للتهديد والتغلب ، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ، ويبعد عن طريقهم)[1] .

ولعل تعبير المستشرق (ليوبولد فايس) الذي أسلم وتسمى باسم (محمد

---

(١) عن عماد الدين خليل : تطور الموقف الغربي من السيرة ـ ضمن (مناهج المستشرقين ١٢٨/١ نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ بالاشتراك مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الرياض ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥) .

أسد) عن أزمة الأوروبي تجاه الإسلام ، وأزمة المستشرق بصفة خاصة ـ هو أوضح تعبير ، وأدقه حيث جاء من واقع الخبرة ، والممارسة العريضة العميقة لكتابات المستشرقين ، قال : (. . . لا تجد موقف الأوروبى تجاه الإسلام ، موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور ، يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضًا بصبغة عاطفية قوية . . . . إن الأوروبي لا يحتفظ تجاه الإسلام بموقف عقلي متزن ، مبني على التفكير ، بل حالما يتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب ، غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام .

ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام ، لا يمكن أن يعالج على أنه موضوعٌ بحتٌ في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام ، الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله ، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور ، اعتبارَ الأسباب المخففة) .

ثم يقول بعد ذلك مبينًا أن الإسلام وحده ، دون الثقافات الأجنبية المختلفة ، وقفت منه الدراسات الغربية هذا الموقف : (أمَّا فيما يتعلق بالإسلام ، فإن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي ، غير معقود فوقه بجسر ، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسيًّا من التفكير الأوروبي .

والواقع أن المستشرقين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها عن تعاليم الإسلام وتاريخه ، مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الاوروبيين من (الوثنيين)

غير أن هذا الالتواء العقلي ، قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها ، أما تحامل المستشرقين على الإسلام ، فغريزة موروثة وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية ، بكل ما لها من ذيول في عقول الأوروبيين الأولين)[1] .

هكذا أصبح تحامل المستشرقين على الإسلام موروثة ، وخاصة طبيعية ، تزول المؤثرات ، والدوافع ، والأسباب ، ولا تزول هذه الغريزة ، فكيف يقال : إن الدراسات الاستشراقية قد تطورت ؟؟ .

لمن يكتب المستشرقون ؟

لم نكن بحاجة إلى هذا العناء ، وتناول هذا الموضوع ـ موضوع المستشرقين وأعمال المستشرقين ـ أصلاً ، لو أن بني قومنا عرفوا لمن يكتب المستشرقون ، لو أن المثقف المسلم ، وصاحب القلم المسلم ، ورجل الفكر المسلم ، عرفوا لمن يكتب المستشرقون ، لووقفوا من هذه الأعمال الاستشراقية الموقف الصحيح ، فتركوها لمن كتبت له .

لم يكن المستشرقون ـ في تقديري ـ يتوجهون بهذه الأعمال ، وبهذه البحوث كلها إلا إلى المثقف الغربي ، يخافون عليه ، ويحصنونه ، من أن يقع في إسار الإسلام ، دينًا وفكرًا وحضارة ، كأنّ الاستشراق ـ بهذه الأعمال ـ يريد أن يضرب ستارًا كثيفًا ، من التشويش ، والتشويه ، بين المثقف الأوروبي وبين الإسلام .

---

(١) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق : ٥٢ ـ ٦٦ ، الطبعة التاسعة .

كانت الصليبية الأوروبية - والاستشراق لسانها - تخشى أن يملأ نور الإسلام ، قلوب المسيحيين الأوروبيين ، كما ملأ قلوب المسيحيين، في الشام ، وفي مصر ، وفي الشمال الإفريقي ، وفي الاندلس ، فدخل المسيحيون في كل هذه الاصقاع (طائعين مختارين) في نور الإسلام ، وتكلموا لغة القرآن ، وحملوا رايته ، وجاهدوا في سبيله ، وقاتلوا أعداءه .

كانت المسيحية الأوروبية في فزع فازع ، وكان أحبار الكنيسة ، ورهبانها يخشون أن يصل نور الإسلام إلى أوروبا ، فيبدد ظلام الكنيسة ، ويحطم سلطانها ويحرم رجالها غنائمهم ، ومن هنا عمد المستشرقون - وهم لسان الكنيسة - إلى هاتيك الدراسات ، ليجعلوها عصابة على عيون أبناء الكنيسة ورعاياها . . كما أوضحنا ذلك في صفحات سابقة .

ومن هنا نجدهم في كتاباتهم الأولى ، يكتفون بالسب والشتم ، في الإسلام وفي رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم - وتنزه عما قالوا - واختلاق الأكاذيب عن المسلمين ، ونظام حياتهم ومجتمعاتهم ، ثم تطورت هذه الدراسات رويدًا رويدًا فبعد أن كانت فى أول أمرها فجة ساذجة ، صارت تتجه إلى الترتيب والتنسيق والاستدلال ، وأخذت في التعميق ، وارتداء ثوب البحث ، وطيلسان الأكاديمية ، ولكنها ظلت وفية لهدفها الأول ، لم تنسه ولم تتخل عنه ، وهو تحصين الإنسان الأوروبي ، ضد الإسلام .

ويظن بعض من أبناء أمتي حين يرون هذا التغيّر، أن هذا تطور في الدراسات الاستشراقية ، وتغيير للأهداف ، وتنازل عن الأحقاد ، وأن القوم ثابوا إلى الإنصاف ، فكفوا عن السب والشتم ، والتقبيح ، ومالوا إلى العلمية ، والتزموا بالموضوعية .

ولكن الواقع أنه ليس في الأمر ، موضوعية ، ولا منهجية ، ولا اعتدال ، ولا استقامة وإنما كان هذا التغير ، أو التطور في الأساليب فقط، وكان تغيير الأساليب ضرورة أملتها الظروف وواقع الحال ، كان لابد من تغيير الأساليب لتتلاءم وتتواءم مع المواطن الأوروبي المسيحي نفسه - المخاطب أصلاً

بالدراسات الاستشراقية ـ فحيثما كان العصر عصر أُمّية وجهالة ، وهمجية ، كان يكفيهم أن يكتبوا لهم سبًّا وشتمًا ، في الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وفي المسلمين ، حتى يقبحوه ويشوهوه ، في أعينهم ، وينفروهم منه ، أما مع التطور والاستنارة، ومعرفة هؤلاء الأوروبيين بالمسلمين والإسلام ، نتيجة للاحتكاك في القتال ، والتجارة والانتقال ، فكان لابد من أن يغير هؤلاء أساليبهم ، حتى تنطلي على عقول الأجيال الجديدة ، وكان تغيير الأساليب يتلاءم ويتواءم مع درجة معرفة هؤلاء عن الإسلام والمسلمين .

كان هذا هو تفسيرنا للتطور (المزعوم) للاستشراق ، قلناه من واقع الاستقراء لأحداث التاريخ ، ولأدوار الصراع المرير ـ الذي لم ينقطع بين الصليبية والإسلام ، ومن واقع ما رأيناه ، في أبحاثهم ، من التواء بالمنهج ، وطمس للحقائق .

ثم بعد ذلك قرأناه صريحا ، مكشوفا في كلام المستشرق الإنجليزي المعاصر (مونتجومري وات) وهو يتحدث عن (مآخذ أخلاقية مزعومة) ادعاها الغربيون في كتاباتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (ليس بين كبار رجال العالم رجل كثر شانئوه كمحمد (صلى الله عليه وسلم) ومن الصعب[1] فهم السبب الذي دعا إلى ذلك ، فقد كان الإسلام خلال قرون عدة العدو الأكبر للمسيحية)[2] ، ولم تكن المسيحية في الحقيقة على اتصال مباشر بأية دولة أخرى منظمة توازي الإسلام في القوة ، فلقد هوجمت الإمبراطورية البيزنطية ، بعد أن فقدت مقاطعاتها في سورية ومصر ، وآسيا الصغرى ، بينما كانت أوروبا الغربية مهددة في أسبانيا وصقلية .

---

(١) كذا قال : وكان الأولى أن يقول : (ومن السهل) فإن ما ذكره في هذه الفقرات هو التفسير الذي لا يحتاج إلى عناء في إدراكه .

(٢) لم يكن الإسلام ـ ولن يكون عدوا للمسيحية ، ولكنه عدو للروح الصليبية ، وروح الانتقام التي لم يخب ضرامها في نفوس الصليبيين ، برغم ما أبداه الإسلام دائما من تسامح .

وأخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى - حتى قبل أن توحد الحرب الصليبية اهتمام المسيحيين حول طرد العرب من الأرض المقدسة - تعمل على إقرار فكرة (العدو الأكبر) في الأذهان ، ولو كانت تلك الدعاية خالية من كل موضوعية .

وأصبح محمد (أمير الظلمات) حتى إذا ما حل القرن الحادي عشر ، كان للأفكار الخرافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين، والقائمة في أذهان الصليبيين ، تأثير يؤسف له .

فلقد أُنذر الصليبيون بأن ينتظروا أسوأ الأمور من الأعداء . . ولما وجدوا بين هؤلاء الأعداء كثيرا من المحاربين الفرسان ، شعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية .

ولهذا حاول بطرس الراهب أن يعالج هذا الوضع بإذاعة معلومات أصدق عن محمد والديانة التي يدعو إليها .

وقد حدث تطور كبير في هذا السبيل ، ولاسيما منذ قرنين من الزمن ، وإن ظل كثير من الأوهام عالقًا في الأذهان [1] .

فها هو يكشف عن سر هذا التطور : « وجدوا (أي الصليبيين) بين هؤلاء الأعداء (أي المسلمين) كثيرًا من المحاربين الفرسان (أي النبلاء والأبطال) فشعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية ، (هكذا اطلع مسيحو أوروبا أثناء الحرب الصليبية ، على صورة المسلمين ، غير الصورة التى صورها لهم رهبانهم (المستشرقون) فحاول بطرس الراهب (من قواد الحروب الصليبية ومشعلى أوارها) أن يعالج هذا الوضع ، (الشعور بالريبة من السلطات الدينية المسيحية) بإذاعة معلومات أصدق عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والديانة التي يدعو إليها » .

---

(١) مونتجومري وات : محمد في المدينة : ١٩٣ - ١٩٤ .

وبعد ذلك ، ومع ذلك ، نجد من (الأساتذة الكبار) من يبشر فينا بتطور الدراسات الاستشراقية ، والتزامها بالمنهج ، وأصول البحث ، وتجردها ونزاهتها .

المستشرقون لا يكتبون لنا

قلنا : إن الاستشراق بأبحاثه وأعماله (كلها) موجه إلى المواطن الأوروبي نعم للمواطن الأوروبي ، فما كان المستشرقون يطمحون بل يحلمون أن تكون أعمالهم هذه توجهًا وتعليمًا للمسلمين ، بل مرجعاً يعتمدون عليه ، وموئلا يلوذون به ، ومصدراً يرتوون منه ، ومنبعاً يعبون منه ، في دراساتهم ، وأبحاثهم وكتبهم ، فتقوم صروح الفكر والثقافة على أعمال المستشرقين ، فتكون على شفا جرف هارٍ ينهار بنا في وهدة السقوط والضياع ، والاستلاب الحضاري .

لم يكن يطمح ولا يحلم المستشرقون بشيء من هذا ، ولا دون هذا ، فلم تشهد الدنيا قط في تاريخها ، رجلاً غريبًا عن الأمة ـ أية أمة ـ صار مسموع الكلمة في أدب هذه الأمة ، وتاريخها وحياة مجتمعها ، بل ودينها .

لم تشهد الدنيا في تاريخها ما شهدته أمتنا (أرأيتم قط رجلاً واحدًا من غير الإنجليز أو الألمان مثلا ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية ، وخصائص لغتها ، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية ، وفي حياة المجتمع الإنجليزي ، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم ؟ .

أليس غريبًا أن يكون غير الممكن ممكنا ، في ثقافتنا نحن وحدها ، دون سائر ثقافات البشر، قديمها وحديثها ؟ غريب عجيب لا محالة)[1] .

---

(١) أستاذنا محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٢١٠٦ فقرة ١٩ .

ولكنه للأسف كان وحدث في ثقافتنا وحدها ، وجدنا عالمًا جليلاً يقتعد مقعد الأستاذية ، في حصن العربية والإسلام ، الأزهر ، في كلية الشريعة ، يفتتح درسه الأول لطلاب قسم الدراسات العليا قائلاً : (إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ، ولكن على طريقة علمية ، لا عهد للأزهر بها ، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاما ، فلم أفهم الإسلام ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا) . . .[1] ثم ابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ، ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه ، هو كتاب جولد تسيهر (دراسات إسلامية) وينقل عباراته ، ويتبناها على أنها حقائق علمية)[2] .

أرأيت ؟ صار غير الممكن في أمم الأرض كلها ، وفي ثقافات الدنيا كلها ممكنًا ، واقعًا في أمتنا وحدها ، وفي ثقافتنا وحدها !! .

لقد نبغ من أبناء أمتنا نابغون ، في اليونانيات ، واللاتينيات ، والفرنسية والإنجليزية ، أترى لو أن أحدهم كتب في آداب هذه اللغات ، أو في شؤون مجتمعها أو في تاريخها ، أو عقائدها ، يصبح مرجعًا ، ومصدرًا لأهلها ؟ أترى لو أن أستاذ الجيل ، أو عميد الأدب العربي[3] ، كتبا في تاريخ اليونان ، وفي آداب فرنسا ، يصبح لكتابتهما مكان بين المصادر ، والمراجع ، وتجد من يقول برأيهما ، ويعتقده ، ويتبناه ؟؟ .

(لكنها صروف الدهر ، التي ترفع قوما ، وتخفض آخرين ، قد أنزلت بنا ، وبلغتنا وبأدبنا ، ما يبيح لمثل هؤلاء المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا

---

(١) الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، الاستشراق والمستشرقون : ٩ ـ ١٠ .

(٢) رجع الشيخ على حسن عبد القادر عن رأيه هذا في المستشرقين ، راجع القصة كاملة في مصدرها المشار اليه لتعرف تفاصيلها ، وأسباب الرجوع ، واقرأ كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي) لتعرف مدي الرجوع عن تبني آراء المستشرقين ودرجته .

(٣) هما على الترتيب أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وهما من أعمدة التغريب والوفاء والولاء للثقافة الغربية .

وأدبنا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم ، وأن يجدوا أيضًا من يختارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية) .[1] .

كان ذلك في صيف ١٩٢٥ م فقد أعطى تيمور باشا عدد يوليه سنة ١٩٢٥ م من مجلة (الجمعية الملكية الآسيوية) إلى الأستاذ محمود شاكر مشيرًا إلى مقال (مرجليوث) قائلا : (اقرأ هذا) فلما لقيه ثانية وسأله عن رأيه فيما قرأ قائلا : (ماذا رأيت ؟) قال شيخنا محمود شاكر ، وكان بعدُ فتى ناشئا ، على أبواب الجامعة ، قال : (رأيت أعجميًّا باردًا شديد البرودة ، لا يستحي كعادته) (فابتسم تيمور باشا وتلألأت عيناه) .

فقال الفتى : محمود شاكر : (أنا بلاشك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافًا مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وأستطيع أن أتلعب بنشأة الشعر الإنجليزي ، منذ (شوسر) إلى يومنا هذا تلعبًا ، هو أفضل في العقل ، من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي ، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجم وصفاقة الوجه ، ما يسول لي أن أخط حرفًا واحدًا عن نشأة الشعر الإنجليزي ، ولكنها صروف الدهر . .)[2].

فأس البلاء في قضية الاستشراق والمستشرقين ، هو ذلك الوضع المقلوب العجيب الغريب ، أعني اعتماد بني جلدتنا على (أبحاثهم) و(علومهم) ، التي كتبت في الأصل للمثقف الأوروبي ، لا للعلماء العرب .

ولولا أن ذلك الوضع المقلوب كائن عندنا ، لما كان للاستشراق قضية ، ولما

---

(١) من كلام أستاذنا محمود شاكر ـ مد الله في عمره ـ عندما سأله العلامة أحمد تيمور باشا عن رأيه في بحث مرجليوث عن نشأة الشعر العربي .

(٢) اقرأ النص كاملا ، مع موقف شيخنا من قضية الشعر الجاهلي ، وطه حسين ، وطرف من رأيه في الاستشراق والمستشرقين ، في المقدمة التى كتبها لكتابه المتنبي تحت عنوان (لمحة من فساد حياتنا الأدبية من ص ٩ ـ ٤٥ ـ طبعة ١٩٧٧م) .

اشتغل بأمر المستشرقين صاحب قلم ، والله المستعان على كل بلية .

وأعجب من كل ما تقدم وأغرب ، أعني أعجب من اعتماد أبناء أمتنا على كتابات المستشرقين ، في دراساتهم ، وأبحاثهم ، أعجب من هذا اتخاذهم أساتذة ، نجلس منهم مجلس التلمذة ، ونأخذ عنهم العلم ، فيما يختص بتاريخنا ، ومجتمعاتنا ، بل ودِيننا ولغتنا ، ولقد عبر عن هذه المفارقة العجيبة الشاذة ، العلامة أبو الأعلى المودودي بقوله : (من تقلبات الدهر وعجائب أمره ، أنه قد مر على المسيحيين فى أوروبا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الاندلس ، ليتعلموا كتابهم المقدس - التوراة - من علماء المسلمين ، أما الآن ، فقد انقلب الأمر رأسًا على عقب حيث أصبح المسلمون - وا أسفاه - يرجعون إلى أهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يسألونهم : ما هو الإسلام ، وما هو تاريخه ، وما هي خصائصه ؟ ليس هذا فقط ، بل قد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم ، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي . . وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين لا يجعلونه مادة للدراسة في كلياتهم وجامعاتهم فقط ، ولكن يؤمنون به إيمانًا راسخًا مع أنهم - يعني الغرب - قوم لا يسمحون لأحد إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم ولا في أتفه الأمور) .[1] .

المستشرقون والتاريخ

أهمية التاريخ :

للتاريخ أهمية عظمى في بناء الأمم ، والمحافظة على هويتها وشخصيتها ،

---

(١) العلامة أبو لأعلى المودودي - الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة : ٢٧١ - أخذاً من محمد فتح الله الزيادي : ظاهرة انتشار الإسلام ، وموقف بعض المستشرقين منها ٩٨ - ٩٩ .

بل على قوتها ، وقدرتها على الشموخ ، والاستطالة ، والاستمرار ، فهو جذور الأمة التي تضرب بها في الأعماق ، فلا تعصف بها الأنواء ، ولا تزلزلها الأعاصير ، ولا يفتنها الأعداء . . وهو ذاكرة الأمة ، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تماما ، بها تعي الأمة ماضيها ، وتفسر حاضرها ، وتستشرف مستقبلها .

فالإنسان الذي يفقد ذاكرته ، يرتد ـ على ضخامة جسمه ـ طفلاً غرًّا لا يعي شيئًا مما حوله ، عاجزًا عن أن يتبصر في أمسه ، أو يشعر بيومه ، أو يتطلع إلى غده ، وكذلك الأمة حين يضيع منها تاريخها ، ويشوش في عقول أبنائها ، ويشوه في عيونهم ، عندئذ يضيع منها الطريق ، وتسلم مقودها لمن يوجهها ، ويعود يملأ ذاكرتها بما يوجه خطواتها حيث يريد .

فالتاريخ ليس علم الماضي ، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته ؛ فالأمة التي تستطيع البقاء ، هي الأمة التي لها ضمير تاريخي ، ومعرفة بالتاريخ ، وعشق له .

والتاريخ أيضًا (عرض الأمة) كما سماه كاتب العربية الأكبر عباس محمود العقاد ، ورحم الله أمير الشعراء حين قال :

مثل القوم أضاعوا تاريخهم كلقيطٍ عيَّ في الحي انتسابا

ولذا لم نعجب حين حدثت أزمة عالمية بين الصين واليابان ، أدت إلى حشد الجيوش الصينية على الحدود وقطع العلاقات الدبلوماسية ، والتهديد بقطع العلاقات الاقتصادية ، وبشن الحرب ، كل ذلك بسبب عدة أسطر في كتاب من كتب التاريخ المدرسية ، أرادت اليابان أن تغيرها .[1]

وأصل قضية تاريخ اليابان هذه ، ترجع إلى عام ١٩٤٥ م ، يوم انتهت الحرب العالمية الثانية ، ودخل الجنرال الأمريكي (مكارثي) قائد القوات

---

(١) كان ذلك في ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ م راجع جريدة الأهرام القاهرية الصفحة الأخيرة .

المنتصرة طوكيو المستسلمة ، يومها لم يشغل (مكارثي) زهو الانتصار عن المستقبل ، فأرسل يستدعي من أمريكا بعثة تربوية تضع مناهج تربية جديدة لمدارس اليابان ، وكان مما غيرته مناهج التاريخ ، لتضمن صياغة أجيال جديدة من اليابانيين غير قادرين على إشعال الحرب مرة ثانية . . هذه المناهج المفروضة على اليابان ، هي التي حاول اليابانيون تغييرها ، فكانت الأزمة المشار إليها .

ونختم هذه اللمحة عن قيمة التاريخ بكلمة المفكر المسلم مالك بن نبي : (إن نظرتنا إلى التاريخ لا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب ، بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة ، فهي تحدد مواقفنا أمام الأحداث ، وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم عنها)[1] .

أهمية التاريخ الإسلامي

وإذا كنا قد ألمحنا إلى أهمية التاريخ بصفة عامة ، فأهمية التاريخ الإسلامي ـ لاشك ـ تفوق كل أهمية ، ذلك أن التاريخ الإسلامي في واقع الأمر ، هو الإسلام مطبقًا منفذًا ، واقعًا ، فتشويه التاريخ الإسلامي يؤدي بالضرورة إلى تشويه الإسلام ، ودع عنك ما يقوله بعض الذين سقطوا أسرى تشويه التاريخ الإسلامي : (من أن هناك فرقًا بين الإسلام والمسلمين ، وأن الإسلام يحكم على المسلمين ، ولا يحكم المسلمون على الإسلام) فهذا القول ـ على وجاهته ـ غاية ما يصل إليه أصحابه ، أن الإسلام منهاج رباني سماوي ولكنه (مثالي) ينوء البشر بتطبيقه ، وتقعد بهم نوازعهم ، وشهواتهم عن القيام به والسمو إلى ما يدعو له ، ويرمي إليه .

---

(١) تأملات : ٢٦ .

هذا غاية ما يمكن أن يصلوا إليه ، وهو كما ترى خطر ماحق ، ولذلك رأينا - فعلاً وواقعًا - من يحاج الدعاة إلى تطبيق الإسلام وتحكيمه بهذا التاريخ المشوه وهم في نفس الوقت يعظمون الإسلام ، ويمجدونه ، بل يعتقدون أنهم - بوقوفهم في وجه الدعاة ، ومقاومتهم تحكيم الإسلام ، وتطبيق شرائعه ، يدفعون عن الإسلام ، ويحمونه من التشويه والتضليل ، كتب أحدهم - وهو ليس من أصحاب الأقلام المعروفة بمناوأتها للإسلام ، بل معروف بعداوته للأقلام المنحلة ، والمنحرفة ، والملحدة ، كتب مقالا طويلا جاء فيه : (على مدى ألف وأربعمائة عام ، والملوك والخلفاء يدّعون أنهم يحكمون بالإسلام ، فإذا هم يجعلون الشريعة وسيلتهم إلى كل ما تعرف أنهم صنعوه بعباد الله الأبرياء المسلمين ، وغير المسلمين .

أذكر هارون الرشيد وسرفه ، أذكر المأمون ، وفقهاء الإسلام ، وما صنع بهم من أجل قضية كلامية ، أيّ إسلام تريدون ؟ إسلام بنى أمية الذين فعلوا . . . . . إسلام العباسيين الذين فعلوا . . . . . إسلام المماليك الذين فعلوا . . . . . إسلام العثمانيين الذين فعلوا . . . . . إسلام . . . أم إسلام . . . . . إن عمر بن الخطاب كان فلتة . . ألا ترى أن دين الله الأقوم ينبغي أن يظل صلة بيننا وبين الله بغير قسر ولا إجبار وإذا كان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ، في آيات شريفة كثيرة ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، فمن سمح لكم أن تبلغوا ، وما أنتم بمبلغين ، أو أن تحاسبوا وما أنتم بآلهة)[1] .

---

(١) بتصرف يسير من مقال الأستاذ ثروت أباظه - أمين اتحاد الكتاب (جريدة الأهرام) القاهرية ١٢/٤/١٩٨٧ م ، وتأمل العبارات لترى النظرة الغربية للدين ولصلته بالحياة .

وانظر أيضا : أحمد بهاء الدين : جريدة الاهرام ١٥/٥/١٩٨٧ م لترى نفس الرؤية النصرانية الغربية للدين ولدوره في الحياة .

ولتتأكد أن تشويه التاريخ الإسلامي ، هو تشويه للإسلام نفسه ، نسوق لك ما قاله الكاتب المصري ـ سلامة موسى ـ الذي يجعلونه أحد (الشوامخ) وأبطال عصر التنوير ، قال بعد أن تحدث عن الاستبداد ، وطبيعة البداوة العربية ، التي ترضاه وتقبله ، وتعيش به ، قال : (ومن جهة أخرى ، نرى أممًا مسلمة كثيرة ، بعدت عن الروح العربية ، ولكن بقي لها استبداد الخلافة .

وقد يقال : إن القرآن لم ينص على الخلافة ، وهذا صحيح ، ولكن الإنجيل أيضا لم ينص على البابوية ، فكما أنه لا يمكن تخلى المسيحية من تبعات البابوية ، فكذلك لا يمكن أن يخلى الإسلام من تبعات الخلافة ، والحقيقة أن البابوية والخلافة ترجعان إلى التقاليد المأثورة لا إلى الانجيل ولا إلى القرآن .

وقد انتفع الإسلام من عدم وجود الكهنة في نظامه ولكن بقاء المسحة الدينية على الخلافة ، كاد يزيل هذه الميزة التي للإسلام على المسيحية[1] ، هكذا تبعات الخلافة وفسادها سببه الإسلام ، وهو المسؤول عنها ، والخلافة هي البديل الإسلامي ، للكهنوت والفساد البابوي) أرأيت ؟؟ !! .

اتجاه المستشرقين للتاريخ

لأهمية التاريخ هذه ، ولأثره في الأمة ، اتجه المستشرقون في أبحاثهم إلى التاريخ ، حتى جاءت معظم أعمالهم ، سواء الأبحاث أم التحقيق والنشر ، أم الترجمة ، معظمها في مجال التاريخ[2] ، ونعني التاريخ بمعناه العام ، التاريخ

---

(١) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ : ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) انظر بحثا لنا بعنوان : المستشرقون والتراث ـ لترى مدى هذا الاهتمام في مجال التحقيق والنشر ، حيث بلغت نسبة المنشور في التاريخ ٧٣٪ .

السياسي والتاريخ الحضاري ، والاجتماعي ، وتاريخ الفرق والمذاهب ، والفكر والفن والعلم ، وتاريخ الرجال والطبقات ، ومعاجم البلدان .

وفي اهتمام المستشرقين بالتاريخ ، وتوظيفهم له ، واعتمادهم عليه لتحقيق مآربهم ، اتخذوا مناهج وطرقًا تؤدي بهم إلى ما يريدون .

ويمكن أن نتبين ملامح هذه المناهج إذا ميزنا فيها بين جانبين :

أ ـ المنهج من حيث الشكل الخارجي (ونعني بذلك اختيار الموضوعات ، وترتيب الاهتمام بها ، وطريقة تناولها بصفة عامة) .

ب ـ المنهج من حيث استكمال شروطه ، والالتزام بقواعده .

وسنحاول أن نلقي نظرات سريعة على الجانبين نتبين بعض الملامح في كل منهما ، على قدر ما تسمح به هذه العجالة .

أولاً : المنهج من حيث الشكل :

(أ) الاهتمام بتاريخ الفرق والصراع بينها ، وعوامل نشأتها ، ومحاولة إثارة أخبارها ، ووضعها في بؤرة الشعور ، لدى الأمة الإسلامية ، وتلك مكيدة ، كادها أسلاف لهم من قبل ، حين جلس ذياك اليهودى يحكي أخبار (يوم بعاث) حتى أو قد نار العداوة بين الأوس ، والخزرج من جديد ، وكادت تكون فتنة ، لولا أن تداركها النبي صلى الله عليه وسلم .

(ب) العناية بتاريخ الزندقة والزنادقة ، وإبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحر ، وقادة الفكر ، ولهم في هذا الباب دأب عجيب غريب وتستطيع أن تمد يدك إلى أي كتاب مما يتناول أعمال المستشرقين لترى ذلك واضحًا جليًا ، فهذا (هنري كوربان) يعيش حياته مع رفيق عمره ـ على حد تعبير الدكتور عبد الرحمن بدوى[1] (السهروردي

---

(١) راجع موسوعة المستشرقين : ٣٣٥ ـ ٣٤١ .

المقتول) فيدرس كتبه ويترجم رسائله ، ويحقق وينشر مؤلفاته وكأنه وجد فى هذا (السهروردي) الزنديق ، الذي عاش زمن الحروب الصليبية ، ولم يتورع عن أضاليله وأباطيله ، التى كان ينفثها فى المجتمع الصامد المثابر المصابر ، أمام الهجمة الصليبية الشرسة ، مما استحق عليه القتل جزاء زندقته ، كأن هذا المستشرق (كوربان) وقع على كنز ، فراح يعكف على تراث هذا الزنديق ، وكان من أثر ذلك أن تسربت هذه الأفكار على أسنة أقلام المثقفين المعاصرين ، فإذا بأحدهم ـ وهو يكتب عن بعض القضايا الأدبية يطالعنا بعنوان بارز لإحدى مقالاته :

(إعدام حكيم الإشراق . . كان أبشع ما اقترفته يدا صلاح الدين الأيوبي) . . وهكذا استطاع (كوربان) أن ينتقم من صلاح الدين الأيوبي أبشع انتقام ، وأن يحدث في ثقافة هذا الكاتب المسلم ، هذا الصدع الخطير وأن يضع المثقفين أمام هذه المفارقة العجيبة المؤلمة : بين قهر حرية الفكر والرأي ، وقهر الصليبيين . . فصلاح الدين قاهر الصليبيين ، هو في الوقت نفسه قاتل (السهروردي) قهراً للرأي ، ووأداً لحرية الفكر ، وعليكم أن تختاروا معشر المثقفين ، بين قهر الفكر ، وقهر الصليبيين !! .

وكنت قد كتبت تعليقا بمجلة الأمة القطرية عدد ٥٠ ص ٩٦ ، بعنوان (أصول الأفكار ، وجذورها) حاولت فيه أن أبحث عن أصل هذه الفكرة ـ اتهام صلاح الدين ، بوأد الفكر ، وقتل السهروردي ـ وردها إلى منبتها وجذورها ، ويومها وقفت بها عند سلامة موسى[1] ، حيث رأيتها في كتابه

(١) كاتب مصرى ، توفي سنة ١٩٥٨ م ذو نزعة صليبية تغريبية ، لا يخفي عداوته وتحقيره ، لكل ما هو شرقي ، كان صاحب هدف وغاية ، تتولى دار المستقبل للنشر بالقاهرة والاسكندرية ، نشر مؤلفاته ، واذاعتها ، تحت عنوان (تراث من الكفاح الهادف) ، واقرأ عنه بعض إشارات في كتاب أستاذنا محمود محمد شاكر (أباطيل وأسمار) وعندها تعرف طبيعته وغايته وهدفه .

(حرية الفكر وأبطالها في التاريخ : ١٣٣) إذ قال : (ويجب ألا ننسى أن السهروردي قتل بأمر صلاح الدين الأيوبي . . فقد كان رجلا كرديا غير مثقف ، فاستطاع الفقهاء أن يؤثروا فيه ، ويزينوا له قتل السهروردي) . .

ويومها لم أكن قد اطلعت على ما كتبه المستشرق (كوربان) عن السهروردي ، لأعلم أن (سلامة موسى) متكىء عليه في هذا الكلام ، وأن أصل الفكرة ، وجذورها ترجع إلى أبعد من سلامة موسى ، ترجع إلى (كوربان) .

وهكذا إذا استحال عليهم أن يجدوا مغمزًا في صلاح الدين الأيوبي عن طريق التاريخ السياسي ، واستعصى عليهم إنكار بطولاته ، وفروسيته ونبله ، ومروءته ، وكرمه ، وشرفه ، نقبوا في تاريخ الفكر لذلك العصر ليجدوا حادثة (السهروردي) الملحد ، فيضخموها ، ويكبروها ويجعلوا من الملحد بطلاً ، ومثالاً لحرية الرأي ، والفكر ، التي لم يصبر عليها صلاح الدين الأيوبي ، (الكردي الجاهل) فأمر بقتل ذلك (الحكيم) !!! .

ومما يدخل في هذا الباب ـ أعني توظيف تاريخ الفكر واستخدامه ـ ما قام به (ماسينيون) من دراسات وأبحاث حول (الحلاج) ، يقول أستاذنا الدكتور محمود قاسم : (. . إن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيرًا من العقيدة الإسلامية ، رغم ما بذل المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية عن طريق تمجيد التصوف الكاذب ، وإشاعة الخرافات والأباطيل ، على نحو ما نراه في مؤلفات (لويس ماسينون) الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج[1] فجعله صورة من المسيح في الإسلام ،

(١) مما يذكر بأسى ، أن عالما جليلا مستنيرا ، أسرف على نفسه وعلى قرائه ، ذات حديث إلى مجلة إسلامية كبرى ، فمجد المستشرقين ، وما قاموا به من عمل في سبيل خدمة ثقافتنا وتاريخنا ، ولما أراد أن يستدل على قوله لم يجد إلا عمل (ماسينيون) في تراث الحلاج ودراسته ، وهذا يشهد بما وقعنا فيه من تغرير وخداع .

وأعتقد أن ماسينيون ، ما كان يعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه ، فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والترهات والأباطيل ، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر، طائفة تتمسك بالقديم فتنساق حسب ظنه ، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات ، هي صميم الإسلام ، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية ، والزراية بهذا الإسلام الخرافي ، بل من الإسلام كله)[1] .

ومن المعروف أن (لويس ماسينيون) هذا (كان مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية لشؤون الشمال الإفريقى ، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر ، وحين قامت الحرب العالمية الأولى ـ وكان قد تزوج منذ شهور ـ التحق بالجيش الفرنسي ، وخاض معركة الدردنيل ضد الخلافة العثمانية ، برتبة ضابط في جيش المشرق ، ثم رأيناه مع الجيش الذي دخل القدس في سنة ١٩١٧م بقيادة اللورد (اللنبي)[2] .

ولعل من هذا الباب ـ عبثهم بتاريخ الفكر والعلم ـ ما قام به المستشرق (كراوس) ، ذلك الصهيوني التشيكي الأصل ، الذي عمل أستاذًا للغات السامية في جامعة القاهرة من سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٤٤ م حيث عثر عليه وقد شنق نفسه في مسكنه بالزمالك .

---

(١) د . محمود قاسم ـ الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية : ص ٧ وانظر الفصل الثاني من ص ٣٥ ـ ٧٠ دار المعارف القاهرة ـ ١٩٧٩ م .

(٢) لمزيد من التفصيل ، انظر : عبد الرحمن بدوى ـ موسوعة المستشرقين ٣٦٥ ـ ٣٧٠ دكتور محمد البهى ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ٥٥٦ ، دونالدمالكولم رابد ، جامعة القاهرة ، والمستشرقون ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، بحث منشور بمجلة الثقافة العالمية عدد ٣٨ ص ١٨، ١٩ ، تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب في الكويت .

عُني هذا المستشرق بتاريخ العلوم عند المسلمين ، (وأكب على دراسة الكيمياء عند العرب ، وركز بحثه على رسائل جابر بن حيان في الكيمياء ، وانتهى في بحث نشره ١٩٣٠ م بعنوان (تحطم أسطورة جابر بن حيان) إلى القول : بأن الرسائل العديدة المنسوبة إلى جابر بن حيان ، هي في الواقع من تأليف جماعة من الإسماعيلية) .[1] .

هكذا ، إنكار لوجود جابر بن حيان عبقري الكيمياء المسلم،وتمجيد (للإسماعيلية) تلك الفرقة الباطنية المنشقة المنحرفة ، عن عقائد الإسلام وتعاليمه .

فإذا علمنا أن هذا المستشرق كان عضوًا في عصابة (اشترن) الصهيونية ، التي عملت مع زميلتيها (عصابة الهاجاناه) و(عصابة أرجوان زفاي) على إنشاء إسرائيل في سنة ١٩٤٨ م وذلك بالقتل والإرهاب وسفك الدماء ، ويرجح الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد كان صديقًا لهذا المستشرق ، ومساعدًا له في بعض أبحاثه ، أن السبب في انتحاره هو(أن القرعة وقعت عليه ، لتكليفه من العصابة بقتل (اللورد موين) ، الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط ، الذي خيل إلى عصابة (اشترن) أنه عقبة في سبيل النشاط الصهيوني ، لإيجاد دولة إسرائيل ، بدعوى أنه يمالىء العرب[2]، أو في القليل يحارب الإرهاب الصهيوني ضد الإنجليز في فلسطين آنذاك ، التي كانت ماتزال تحت الانتداب البريطاني ، وتبعًا لذلك كان على (كراوس) أن يختار بين الاشتراك في عملية الاغتيال ، أو أن ينتحر ، وهو على الحالين مقتول ، فيبدو أنه آثر الاختيار الثاني ، أعني أن يقتل نفسه بنفسه ، بدلا من أن يشترك في قتل (اللورد موين)

---

(١) د . عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ٣٢٦ .

(٢) قلت : بل كان قتله في القاهرة لمجرد إحراج مصر مع بريطانيا ، وتحميل مصر - التي كانت في صراع مع بريطانيا بسبب الجلاء - مسئولية قتله ، الذي كان ممكنا أن يؤدي لولا أن لطف الله بمصر وقبض على قاتليه الصهيونيين - إلى تذرع بريطانيا بهذا الحدث ، كما تذرعت بأمثال له من قبل - إلى فرض سيطرة وقيود تأديبية على مصر .

مما سينجم عنه إعدامه أيضا ، كما حدث لمن نفذوا عملية الاغتيال)[1] .

فهذا التاريخ (الناصع) لهذا المستشرق ، يدلك على قيمة أمانته العلمية ، حين ينكر شخصية (جابر بن حيان) ويدعي أنه أسطورة على حين ينسب علمه إلى فرقة منحرفة ، ضالة مضلة ، وهي فرقة (الإسماعيلية) ! والذي يجمع الأعمال الاستشراقية حول الإسماعيلية ، من أبحاث ودراسات ، وتحقيق لرسائلها ، وترجمات لها ، وتاريخ لرجالها ، يهوله لا شك حجم هذه الأعمال ، ويدرك بأدنى تأمل ما يريده المستشرقون من وراء هذه الأعمال ، وهذه الفرقة .

(ج) القفز وراء العصر الإسلامي ، والاهتمام بالتاريخ القديم ، لأقاليم دار الإسلام إحياء للفرعونية ، والبابلية ، والآشورية ، والفينيقية ، ونحوها ، إثارة للنعرات الإقليمية ، وتمزيقًا لجسد الأمة الإسلامية . . ونظرة إلى أعمال أحد المؤتمرات الدورية التي يعقدها المستشرقون ـ وهو المؤتمر الخامس عشر ، الذي انعقد في (كوبنهاجن) سنة ١٩٠٨ م ـ تريك ـ صدق ما أقول ، فقد كان جدول أعمال هذا المؤتمر على النحو التالي :

(١) التاريخ البابلي .
(٢) آثار مصر التاريخية .
(٣) تاريخ مصر القديم واكتشاف البردي .
(٤) المدافن الملكية من السلالة الرابعة عشرة .
(٥) المدافن الملكية من السلالة الخامسة .
(٦) اكتشاف الكرنك .
(٧) أميرات مصر وملكاتها القديمات .
(٨) ما بين الكتب المقدسة والآثار المصرية .
(٩) مشروعات اليهود الدينية .

---

(١) د . عبد الرحمن بدوي ـ معجم المستشرقين : ٣٢٥ ـ ٣٣٠ .

(١٠) حفريات أريحا والآثار الكنعانية .
(١١) النظام الكنائسي في آسيا في القرن الرابع عشر .
(١٢) رسوم الملك جوستينيان .
(١٣) فضل الكنيسة في إبطال الرق في القرون الوسطى .
(١٤) تاريخ الشرق والإسلام .
(١٥) اقتصاد العرب المالي في يد الفتح المصري .
(١٦) تاريخ بني إسرائيل .
(١٧) هيكل جزيرة أسوان وآثارها المكتشفة[1] .

وقد بذلوا جهودًا مضنية في البحث والتنقيب ، والدراسة ، والإشادة بهذه الحضارات البائدة ، والتنويه بشأنها ، وإغراء أهل كل إقليم بماضيه القديم حتى صارت الفرعونية في مصر مثلاً تناطح العروبة ، وأصبح قرن الشر يطلع علينا من آن لآخر ، في صورة هذا السؤال :

فرعونيون أم عرب ؟ وهكذا في كل أقاليم ديار الإسلام !! .

وعلى حين كانت الثقافة ، وكان التعليم ، يتجاوز العصور التي قبل الإسلام ويوجز الحديث عنها ، بدأ الاهتمام بها ، ووضعها في مركز الشعور وتستطيع أن تتبين ما أقول إذا قرأت هذا الكلام لطه حسين ، قال : (ولم ينس الفتى ـ يقصد نفسه ـ يومًا خاصم فيه ابن خالته ، الذي كان طالبًا في دار العلوم ، ولج بينهما الخصام ، فقال الدرعمي للأزهري : ما أنت والعلم ، إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه ، لم تسمع قط درسًا في تاريخ الفراعنة ، أسمعت قط باسم رمسيس أو أخناتون ؟ وبهت الفتى حين سمع هذين الاسمين . . وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ ، اعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها ، ولكنه يرى نفسه ذات ليلة فى غرفة من

---

(١) نجيب العقيقي ـ الاستشراق والمستشرقين : ١١٠٣ ، ١١٠٤ .

غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله ، يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، ويذكر رمسيس وأخناتون ، وغيرهما من الفراعنة ، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ، ومنها اللغة العربية ، ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى اللغة العربية مرة وإلى العبرية مرة ، وإلى السريانية مرة أخرى ، والفتى دهش ذاهل ، حين يسمع كلّ هذا العلم . . وهو يعود إلى بيته ذلك المساء ، وقد ملأه الكبر والغرور ، ولا يكاد يلقى ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخرًا منه ومن دار علومه ، التي كان يستعلي بها عليه ، وهو يسأل ابن خالته ، أتتعلمون اللغات السامية في دار العلوم ؟ فإذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرس في دار العلوم ، أخذه التيه ، وذكر العبرية والسريانية ، ثم ذكر الهيروغليفية وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون)[1] .

وهكذا كان الأزهريون لا يسمعون باسم رمسيس وأخناتون ، وكانت دار العلوم تمر على تاريخ الفراعنة مر الكرام ، فلما جاءت الجامعة المصرية ، وجاءت مناهج المستشرقين ، صار تاريخ الفراعنة ، وحضارة الفراعنة ، ولغة الفراعنة محل عناية بالغة ، جعلت للفرعونية مكانًا ومنزلة ، مما أدى إلى أن تصير الفرعونية توجهًا مطروحًا بين التوجهات ، ثم إحياء لإقليمية ضيقة ذات حدود محصورة مقصورة ، وما حدث في إحياء الفرعونية حدث مثله مع البابلية ، والآشورية ، والفينيقية ، وأخواتها ، مما نجني ثماره علقمًا بهذا التشرذم الذي نعيشه الآن .

(ذ) تمزيق تاريخ الأمة الإسلامية ، طولاً وعرضًا بتقسيمه طولاً إلى تواريخ أسر : الأموية ، والعباسية ، والمماليك ، والعثمانيين ، الخ . . . وعرضا

---

(١) انظر : دونالدمالكولم رايد ـ جامعة القاهرة والمستشرقون ـ ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ـ بحث نشرته مجلة الثقافة العالمية عدد ٣٨ ص ١١ يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت .

بتقسيمه إلى تواريخ أقاليم ومناطق ، يمدها في العمق قبل الإسلام - كما أشرنا - لإثارة عوامل الفرقة ، ومظاهر الاختلاف ، ومؤكدًا إياها ، ومذكرًا بالصراعات والحروب والخصومات والإحن .

على حين الأصل في تاريخ دار الإسلام ، أن يدرس - إذا أردنا دراسة علمية منهجية صحيحة - على أنه صراع بين المسيحية الشمالية المعتدية التى جاء الإسلام فوجدها مسيطرة على الشام ومصر ، والشمال الأفريقي ، فخلص هذه الديار من سلطانها وردها إلى عقر دارها ، فاندحرت تحمل ذل الهزيمة على جباهها ونار الحقد والثأر فى قلوبها ، ثم كان الجهاد الإسلامي استجابة للأمر بتبليغ رسالة الإسلام للعالمين ، فكان فتح الأندلس ، ومحاولات فتح القسطنطينية ، ثم الصراع الدائم على الحدود والثغور ، ثم جولة الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين ، ثم سقوط القسطنطينية ، ودخول الإسلام إلى قلب أوروبا ، ودخول كثير من أقاليمها في الإسلام ، ثم محاولة الصليبية الالتفاف حول ديار الإسلام ، وعقد الأنشوطة حوله - على حد تعبير (توينبي) مؤرخهم - ثم محاولة اختراق ديار الإسلام منذ القرن التاسع عشر ، على أيدي (نابليون) وحملته على الشرق ، (وليس على مصر كما يلقنوننا) ثم حملة (فريزر) التي أرادت الدخول من بوابة مصر أيضا ، ثم حملة فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ م ... الخ .. هذا هو تاريخ الإسلام إن أردنا أن ندرسه على حقيقته ، بمنهج علمي سليم .

أما معركة الجمل ، ومعركة صفين ، والتحكيم ، والخوارج ، ووقعة الحرة ، وكربلاء ومقتل أبي مسلم الخرساني ، وصراع الأمويين والعباسيين .. الخ .. فتلك عثرات على الطريق ، وهي لازمة للقصور ، والضعف البشري ، فنحن لا نزعم أن أسلافنا ملائكة ، وهي على أية حال جزئيات تظهر في الصورة ، ولكنها لا يمكن - عند المنهج العلمي السليم - أن تغطي على عمود الصورة الكلية أو تؤثر في بنائها ، كما أنها واقعًا وحقا - لا يجرؤ

أن ينكره منكرٍ - لم تؤثر في تدفق نهر تاريخ أمتنا ، ولم تكدره ، بل ظل أكثر من ألف عام تدفقًا معطاء .

ولا يتوهمن أحد أننا نريد أن نخفي شيئًا من تاريخنا ، فنحن نعي أننا نكتب تاريخ بشر ، لا تاريخ ملائكة ، وإنما الخطر في ذلك المنهج الذي يقف عند هذه العثرات ، ويصوغ منها تاريخنا ، ولذا نشأت أجيال لا أقول من عامة المثقفين ، بل من خاصتهم ، بل من خاصة الدعاة إلى الإسلام ، ممن لا نغمطهم في علم ولا في خلق ولا في دين ولا في غيرة ، واحتراق من أجل الإسلام ، أقول نشأت أجيال من هؤلاء ، ولم يبق في ذهنهم من تاريخ أمتنا إلا هذه المآسي التي انطبعت في أعماق أعماقهم ، وهم في أول الطريق ، فجاء جيل بعد جيل ، وهم يمقتون تاريخهم ، ويتخيلونه ساحة مظلمة ، يسيطر عليها الجهل والطغيان ، والقتل ، والظلم الاجتماعي[1] .

ولو نظرنا في تاريخ أوروبا ، لوجدنا أن ما دار بينهم من صراع ، وما كان عندهم من مآسٍ ، وما صبغ أيامهم من دم ، وما غطى عصورهم من جهل ، وما ران على تاريخهم من ظلم ، وما تردت فيه خطواتهم من وحل ، لوجدنا أن ما كان عندهم يفوق بعضُ بعضِه ، كلَّ ما كان عندنا ، بل إن ما كان عندنا أبدا لا يذكر في مقابلة ما كان عندهم ، (ولكن التاريخ الأوروبي عثر على مؤرخين أعادوا إليه الحياة ، وقدموه في إطار حي بصورة فنية رائعة بكل عناصرها ، الخلفية والتكوين والأضواء والظلال ، والألوان والمساحات)[2] .

وبقينا نحن نتطلع إلى تاريخهم بإعجاب ، معتقدين أنهم لم يعرفوا هذه المآسي التي لم يبق غيرها مستقرًا في أعماقنا ، من تاريخ أمتنا .

---

(١) عماد الدين خليل ، في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل ١٩٧ .
(٢) المصدر السابق : ٢٠٧ .

ولم يقتصر تقسيمهم التاريخ إلى فترات زمنية ، على التاريخ السياسي فقط ، بل شمل ذلك تاريخ الأدب العربي أيضًا ، فقسموه إلى العصر الجاهلي ثم صدر الإسلام ، ثم العصر الأموي ، والعصر العباسي ، . . الخ ، على نحو ما هو معروف ، يؤكد ذلك الدكتور أحمد أمين ، حيث يقول في كتابه (حياتي) : (إن فكرة تصنيف الأدب العربي إلى عصور مختلفة مع تحديد خصائص كل عصر ، وتحليل سير مؤلفيه ، لم تكن معروفة بمصر لحين وصول المستشرقين)[1] .

(هـ) اختزال تاريخ الإسلام والمسلمين :

فقد ألفت كتب كثيرة في تاريخ العالم ، أو تاريخ الحضارة الإنسانية ، فكان مؤلفوها الغربيون ، يختزلون تاريخ الإسلام والمسلمين ، اختزالاً يوحي بقيمته ومكانته في نفوسهم ، بل يوحي بانحراف منهجهم ، وسوء قصدهم ، ويكفي مثالاً على ذلك الكتاب الذي كتبه (هـ . ج . ويلز) باسم (معالم تاريخ الإنسانية) وترجمه إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ، ولا تجد في الكتاب إلا تاريخ الجاهليات ، والوثنيات ، أما تاريخ الإسلام وأثره في (معالم تاريخ الإنسانية) فلم يذكره إلا بفصل من ٥٣ صفحة .

والسر في ذلك أنهم دائما يكتبون التاريخ من مركز الدائرة الأوروبية ، أي ينظرون من زاوية أوروبية ، وبعيون أوروبية ، فتاريخ العالم هو تاريخ الغرب وأما ما سوى الغرب ، فهو لا يذكر إلا بمقدار ما يتصل بالغرب ، أو يتأثر به ، أو يأخذ عنه ، فما سوى الغرب نقاط متناثرة حول صلب التاريخ وعموده .

ثانيا : المنهج من حيث استكمال شروطه ، والالتزام بقواعده :

ومع أننا نتحدث عن كتابات الغربيين في التاريخ ، إلا أننا سنرى أن ما

---

(١) عن دونالد مالكولم رايد ـ جامعة القاهرة والمستشرقون ، مرجع سبق ذكره .

سنقوله هنا ينطبق على مناهجهم في الدراسات الاستشراقية بصفة عامة ، في التاريخ وغيره ، كالدراسات الأدبية والدراسات حول القرآن ، وحول السنة وكل ما تخطه أيديهم مما يتصل بالإسلام والعربية .

ولأننا جعلنا كتاباتهم في التاريخ موضوعنا ، سنقصر أمثلتنا على الكتابات التاريخية وحدها ، لنكون ملتزمين بموضوعنا . . إن شاء الله . .

ونستطيع أن نوجز هذه الملامح والسمات المنهجية وإن شئت قلت : المآخذ المنهجية على النحو الآتي :

أ ـ الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث

شرط المنهج الأول ، وأساسه ، التجرد من الأهواء ، وعدم الوقوع تحت سلطانها ، فلا يميل الهوى بالباحث لإثبات ما يوافق هواه ، ونفي ما عداه فما بالنا بمن يحدد الغرض أولاً ، والنتيجة مسبقًا ، ثم يبدأ في البحث عما يؤيدها ، والتنقيب عما يثبتها ، فهذا ليس علمًا ، وليس بحثًا ، مهما كانت صورته ، ومهما كان شكله ، وهذا هو ما يعمله المستشرقون ، فهم (يعينون لهم غاية ، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كل رطب ويابس ـ ليس لها علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب أو الشعر ، أو الرواية ، والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية ، لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم (العلامة أبو الحسن الندوي ، الإسلام والمستشرقون : ١٩ ، المجمع الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء ، لكنو ، الهند ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م) .

وما ذكرناه في هذا البحث آنفًا عن أهداف المستشرقين وغاياتهم ، يشير إلى هذه الآفة ، فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها ، ونتيجة وصل إليها

مقدمًا ، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك ، ومن هنا يكون دأبه ، واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضهم ، وهو في الواقع يدأب ، ويشقى ويكد لينحِّي ما يهدم فكرته ويكذب رأيه ، ويخفي ويطمس ويتجاهل كل ما يسوقه إلى نتيجة غير التي حددها سلفًا ، ومن هنا تأتي أبحاثهم عليها مسحة العناء والاستقصاء ، ولكنه عناء الالتواء ، واستقصاء من يجمع من لا شيء شيئًا ، ويصنع من الهباء بناء ويبني من الغبار صرحًا .

يقول أستاذنا محمود شاكر ، عن هذا الخطر ، والخلل المنهجي :

(وأما الأهواء ، فهي الداء المبير والشر المستطير ، والفساد الأكبر ، إن هو ألم بأي عمل إلمامة خفيفة الدبيب ، بله الوطء المتثاقل ، أحاله إلى عمل مستقذر منبوذ كريه ، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه ، وحليه وعطوره ، وأتمها زينة ، من دقة استيعاب وتمحيص ، ومهارة ، وحذق وذكاء)[1] .

هذا الداء المبير ، والخطر الوبيل ، حذر منه علماؤنا الأقدمون ، منذ أكثر من ألف عام ، حين وضعوا قواعد المنهج ، وحددوا أركانه وشروطه ، فتردد في كتبهم ، ونبهوا عليه في كثير من مؤلفاتهم ، وخصوا هذه القواعد بكتب ورسائل خاصة فمن قبل ألف عام قرأت الدنيا للحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠هـ ١٠٣٨ م ، فيما وضعه من قواعد المنهج قوله في كتابه (المناظر) . . (ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى ، في سائر ما نميزه ، وننتقده طلب الحق ، لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج[2] الصدر ، ونصل

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) ثلج الصدر : يتردد هذا في مؤلفات أئمتنا في القرون الأولى ، ويعنون به اليقين ، وكثيرا ما يعطفون عليها لفظا آخر أوضح دلالة على المعنى المراد فيقولون : (ثلج الصدر ، وبرد اليقين) .

بالتدريج والتطلف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وينحسم بها مواد الشبهات)[1] .

هكذا ، استعمال العدل والبعد عن الهوى ، وطلب الحق ، وعدم الميل مع الآراء ، شرط للوصول إلى اليقين والحقيقة !! فهل كان المستشرقون يبغون اليقين ويريدون الحقيقة ؟؟ .

ب ـ عجز المستشرق عن تمثل الثقافة واللغة

إذا كان من شروط المنهج البراءة من الأهواء ، كما ذكرنا آنفًا ، فإن من شروطه أيضًا إدراك اللغة والإحاطة بأسرارها ، أسرار اللغة التي يبحث الباحث في آدابها وعلومها ، وفنونها ، وكذلك إدراك (الثقافة) والإحاطة بسرها ، (ثقافة) الأمة التي يريد أن يبحث في تاريخها ، وعقائدها ، وعمرانها ، وحضارتها ، وعقائدها ودينها .

وذلك لازم للمستشرق وغير المستشرق ، « هذه الشروط لا يختلف فى شأنها أحد قط في كل ثقافة ، وفي كل أمة ، فإذا كان لا يعد كاتبًا أو باحثًا أو عالمًا من أبناء اللغة ، وأبناء الثقافة أنفسهم ، إلا من اجتمعت له هذه الشروط فإذا عري منها لم يكن أهلاً للنزول في ميدان (المنهج) فإذا فعل ، فهو متكلم لا أكثر ، ثم لا يلتفت إلى قوله ، ولا يعتد به عند أهل البحث والعلم والكتابة .

والمستشرق فتى أعجمي ناشىء ، في لسان أمته وتعليم بلاده ، ومغروس في آدابها وثقافتها . . ثم يشدو طرفًا من علوم العربية وآدابها ، يأخذها من أعجمي مثله ، ثم يخرج على الناس بعد ذلك (مستشرقًا) ، يفتي في اللسان العربي ، والتاريخ العربي ، . . . . غاية ما يمكن أن يحوزه (مستشرق) في

(١) الدكتور مصطفى نظيف ، الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية ، ٢٩ ـ ٣٧ ، نقلا عن الدكتور على سامي النشار ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام : ٣٧٣ ـ ٣٧٤ الطبعة الثانية .

عشرين أو ثلاثين سنة . . أن يكون عارفا معرفة ما بهذه (اللغة) وأحسن أحواله عندئذ أن يكون بمنزلة طالب عربي ، في الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقل منه على الأرجح ، أي هو في طبقة العوام الذين لا يعتد بقولهم أحد في ميدان (المنهج) . . على أن اللغة نفسها هي وعاء (الثقافة) فهما متداخلتان ، فمحال أن يكون محيطًا أيضًا بثقافتها إحاطة تؤهله للتمكن من (اللغة) فمن أين يكون (المستشرق) مؤهلاً لنزول هذا الميدان ؟ . .

وإذا كان أمر (اللغة) شديدًا لا يسمح بدخول المستشرق تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان (المنهج) و (ما قبل المنهج) فإن شرط (الثقافة أشد وأعتى ، لأن الثقافة سر من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم ، وفي كل جيل من البشر ، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور ، معارف كثيرة لا تحصى ، متنوعة أبلغ التنوع ، لا يكاد يحاط بها ، مطلوبة في كل مجتمع إنساني ، للإيمان بها أولاً من طريق العقل والقلب ، ثم للعمل بها ، حتى تذوب في بنيان الإنسان ، وتجري منه مجرى الدم ، لا يكاد يحس به ، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه ، انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار ، وهذه القيود الثلاثة : (الإيمان) و (العمل) و (الانتماء) هى أعمدة (الثقافة) وأركانها التي لا يكون لها وجود ظاهر محقق إلا بها ، وإلا انتقض بنيان (الثقافة) وصارت مجرد معلومات ومعارف وأقوال مطروحة في الطريق متفككة لا يجمع بينها جامع ، ولا يقوم لها تماسك ، ولا ترابط ولا تشابك . .

وبديهي ، بل هو فوق البديهي ، أن شرط (الثقافة) بقيوده الثلاثة ، ممتنع على (المستشرق) كل الامتناع ، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد ، كما يقول أبو الحسن التهامي الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وذلك لأن (الثقافة) و (اللغة) متداخلتان تداخلاً لا انفكاك له ، ويترافدان ويتلاقحان بأسلوب خفي غامض كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجًا واحدًا غير قابل للفصل ، في كل جيل من البشر ، وفي كل أمة من

الأمم . . فأنى للمستشرق أن يحوز ما لا يحوزه إلا من ولد في بحبوبة اللغة وثقافتها منذ كان في المهد صبيًا . . . . . »[1] .

وهذا كلام مبين غاية الإبانة ، واضح تمام الوضوح ، لا تحتاج معه إلى دليل ومع ذلك أسوق لك من كلام أحد المستشرقين وكبار دهاقينهم ما يؤكد هذا .

كتب شيخ المستشرقين الروس ، وأقدرهم بإطلاق (كراتشوفسكي) إلى شقيقته يقول لها : (إن اللغة العربية تزداد صعوبة ، كلما ازداد المرء دراسة لها)- أرجع إلى المقدمة التي كتبتها زوجته لكتابه (مع المخطوطات العربية) ترجمة الدكتور محمد منير مرسي . قلت : ما باللغة العربية من صعوبة !! وكيف تزداد صعوبتها مع الأيام ؟ وكلما ازداد دراسة لها ؟؟ لكنه العجز الفطري والعجمة الموروثة ، فأنى يهرب منها (كراتشوفسكي) وأضرابه .

وإن كنت بعد في شك من أمر عجز المستشرق عن استكناه سر اللغة، وإدراك كنه الثقافة ، فسأضع بين يديك نماذج لما وقعوا فيه من أوهام غليظة[2] نتيجة لهذا العجز المهين ، فمنها : « شرح كارترمير ، (الأحداث) بالغوغاء ، وتفسير كازانوفا ، لفظ (أمي) بشعبي ، ومن ذلك ما وقع فيه المستشرق الألماني (براجستراسر) في تحقيق كتاب مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ، حيث صحف كلمة أبي عمرو بن العلاء : (فقد تربع في لحنه) وجعلها : (فقد تربع في الجنة ، مع أن المقام مقام ذم »[3] .

وإذا كانت هذه الأخطاء لا يترتب عليها كبير خلل في المعنى ، أو قضايا

---

(١) أستاذنا محمود شاكر - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٩٩ - ١٠٤ باختصار تصرف يسير . .

(٢) هذا التعبير مستعار من أخي الدكتور محمود الطناحي ، في كتابه مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م وهو كتاب جيد ، ينقذ تاريخا غاليا من الضياع .

(٣) د . محمود الطناحي ، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي : ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

علمية ، فهناك ما يترتب عليه فساد في المعنى ، وأحكام شرعية ، فمن ذلك ما قاله (م . وات) من تفسير الغض من البصر بأنه التواضع ، حيث قال : (وقد نزلت آيات أخرى تدعو المؤمنات إلى التواضع) ﴿ وقلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنِ من أبصارِهِنَّ ، ويَحْفَظْنَ فروجَهُنَّ ، ولا يُبْدينَ زينَتَهن إلا مع ظهر منها ﴾[1] .

هكذا يرى أن هذه الآية تدعو إلى التواضع ، ولسنا ندري من أين جاءه هذا المعنى ، مع أن السياق ، يشير إلى أن الأمر بغض النظر هنا هو عدم النظر إلى ما لا يحل نظره من الأجنبي ، ولا علاقة لهذا بالتواضع .

ونموذج آخر للمستشرق (فان فلوتن) وهو يعتبر أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي ، المتخصصين في فترة الأمويين والعباسيين ، وتستطيع أن تجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية مرجعًا من مراجعهم يباهون به ، ويفتخرون بالاعتماد عليه ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، والواقدي ، ونحوهم ، فيخيل للباحثين والدارسين أنه (وثق) كل أخباره ، وأتى بها من منابعها ، فيعجبون به ، ويطمئنون إليه .

السيطرة العربية

لفلوتن كتاب بهذا الاسم ، ونظراً لأهميته في مجال التاريخ حظي بعناية من رجال التاريخ عندنا ، فترجمه إلى اللغة العربية سنة ١٩٣٤ م الدكتور حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم ، وطبعت هذه الترجمة طبعتان ، ثم

---

(١) (سورة النور : ٣١) (محمد في المدينة : ٤٣٦) .

ترجمه سنة ١٩٨٠ م مرة ثانية الدكتور إبراهيم بيضون . . وفلوتن متخصص في تاريخ هذه الفترة حيث كانت أطروحته للدكتوراه في نفس الموضوع ودراسته ومقالاته وأبحاثه تتجه كلها هذه الوجهة .

ومن هنا كان لكلامه وزن وقيمة ، وكان (لتحريفه) للمصادر ، (وخيانته) للمنهج خطر عظيم ، وكان هذا منه جرمًا أي جرم .

ونحن نلتزم بهدفنا هنا ، فلا يعنينا ما في الكتاب من تهجم على الإسلام والمسلمين ، الذي لا يعدو أن يكون سبًّا وشتمًا (بأسلوب أكاديمي) وإنما يعنينا هنا جريمته في حق تراث أمتنا ، وكيف حرف المصادر والمراجع وزيفها . وإليك هذا المثال :

جاء في ص ٦٦ : « ولقد أصابت الأسر المرموقة في الكوفة ثراء ، فاحشًا كان مصدره (المغانم) والأعطيات السنوية ، فكان الكوفي إذا ما ذهب إلى الحرب يصطحب معه أكثر من ألف من الجمال ، عليها متاعه وخدمه » ثم نسب ذلك إلى الطبري : ٢/٨١٠٦ س ٨ .

وعلى البديهة نرفض أن يكون هذا الكلام في الطبري ، فنحن نعرف الطبري رضي الله عنه إمامًا عالمًا ، مؤرخًا محدثًا فقيهًا ، أو على الأقل (عاقلاً ، يدري ماذا يقول) !! فكيف يذهب الجندي المقاتل إلى الميدان ومعه أكثر من ألف من الجمال ، تحمل متاعه وخدمه ؟ كيف يقاتل ومعه هذه الحاشية ؟ وما يصنع بحمل ألف جمل من المتاع في الميدان ؟ وإذا فرضنا أن الجيش كان عشرة آلاف مقاتل (وهذا تقدير متواضع) فكم عدد الجمال التي تحمل متاعهم ؟ أليست أكثر من عشرة ملايين من الجمال ؟ كيف يتحرك هذا الجيش ؟ وأية طرق تسعهم وأية مياه تكفيهم ؟ وأية مراع تطعمهم ؟ وإذا سقط من الجيش بضع مئات أو آلاف قتلى في الميدان ، فأين تذهب الملايين من الجمال التي تحمل أمتعتهم .

لو قرأ أي عاقل هذا الخبر في أصح كتاب لاتهم صاحبه أو على الأقل نسبه إلى الخطأ والوهم ، ورفض أن يحكي هذا الكلام أو ينقله .

ولكن المستشرق العظيم في غمرة اجتهاده ، لإثبات أن فتوحات المسلمين كانت انتهاباً لخيرات وثروات البلاد التي فتحوها ، راح يجمع الأدلة من هنا وهناك ويلويها ليًّا ، ويزيفها تزييفًا ، إلا أننا ما كنا نتوقع أن يخرج بتزييفه إلى حد اختراع هذه الخرافة ، التي لا شك أنه لم ينتبه إليها ، فقد شهدت عليه لا له .

وهـل لـذلـك أصـل في الطـبري ؟؟

إن عبارة الطبري تقول على لسان قيس بن الهيثم أحد أصحاب مصعب بن الزبير قبيل التحامه مع جيش عبد الملك بن مروان ، يُرغب أهل العراق في القتال ، ويبين لهم حسن معاملة ابن الزبير لهم ، ورفعه لمنزلتهم ومكانتهم : « . . والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف ، وأحدنا على ألف بعير . . » .

فالقائل هنا يريد أن يوازن لأهل العراق بين معاملة خليفة الشام لأصحابه فالسيد منهم يقف بالباب ، ويعتدها تكريما من الخليفة لو أرسله في حاجته ، وبين إكرام حكامهم (الزبيريين) لهم ، فالواحد منهم على ألف بعير ، ومعنى على ألف بعير ، أي أمير ألف ، وكان هذا أكبر لقب في الجيش ، بعد القائد العام ، أي أنهم في كنف الزبيريين كلهم أمراء[1] .

---

(١) انظر : العسكرية العربية للواء الركن محمود شيت خطاب، كتاب الأمة رقم « ٣ » ص ٤٤ .

جـ - التعسف في التفسير والاستنتاج

فإذا تركنا شروط المنهج ، وما رأيناه آنفًا ، من أن المستشرق محروم منها وجدنا لونًا آخر ، بل ألوانًا من خيانة المنهج ، أعني ما ذكرناه آنفا من البراءة من الهوى ، وسنعرض طرفًا من أفانين خيانة المنهج ،ونبدأ بما سميناه (التعسف في التفسير والاستنتاج) فهنا لا يكون اللفظ العربي مستعصّيًا مستغلقا على المستشرق ، ويمكنه ـ لو أراد ـ أن يفهمه فهمًا صحيحًا ، ولكنه يميل مع هواه فيُنطق النص بما يتفق وهدفه ، ويشبع هواه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ـ ككل خيانات المستشرقين ـ لا تقع تحت حصر ، ولكن يكفي أن نـذكر مثـالاً للمستشرق (المنصف) (المعتدل) م. وات : وذلك حين يفسر أمر القرآن الكريم للمؤمنين بالاستئذان قبل الدخول لبيوت غير بيوتهم ، وأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر[1]. يفسر ذلك بانحطاط في مستوى الأخلاق ، كان النبي صلى الله عليه وسلم ، بحاجة إلى السمو به[2].

فمن أين أتى بهذا الاستنتاج ؟؟ وهل تسمح النصوص القرآنية الكريمة بأن يستنتج منها هذا الاستنتاج العجيب .

هل إذا كانت الأخلاق (غير منحطة) يسمح بدخول بيوت الغير بدون استئذان ؟؟

إذا نصح هذا المستشرق ابنه وهو يؤدبه ويعلمه ، ألا يدخل بيتًا غير بيته إلا بعد أن يستأذن ، أيدل ذلك (على انحطاط مستوى أخلاق ابنه)؟؟ وعلى

---

(١) سورة النور : ٢٧، ٣٠، ٣١ .

(٢) محمد « صلى الله عليه وسلم » في المدينة : ٤٣٦ .

انحطاط مستوى أخلاق مجتمعه ؟؟ . .

ونعود إلى (فلوتن) وكتابه (السيطرة العربية) لنأتيك منه بمثال آخر :

جاء في ص ٦٧ قوله : « وقد فرضت حالة الترف المتصاعدة هذه ـ يقصد الترف الذي أصابه المسلمون ثمرةً للفتوح ـ تغطيةً دائمة لمواجهة متطلبات جديدة ، واللجوء إلى الاستدانة كطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم . . » ثم أحالنا على الطبري : ١/٢٨١١ .

فماذا نجد في الطبري في هذا الموضع ؟

لم نجد في الطبري إلا خبرًا عن استدانة سعد بن أبي وقاص من بيت مال الكوفة ، وكان خازن بيت المال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ، وكان سعد والي الكوفة ، فاستقضى عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه سعدًا ، واشتد في مطالبته ، فاستمهله سعد فلم يقبل ، وكان بينهما تلاوم ، ووصل إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعًا ، فلامهما معًا ، وقال لهما : أنتما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف تتلاحيان هكذا أمام الناس ، وعزل سعدًا وأقر عبد الله بنَ مسعود على عمله .

هذا هو ما ذكره الطبري ، فكيف يفهم منه أي قارىء ، بله باحث ضليع يقتعد مقعد الأستاذية ؟؟

كيف يفهم من هذه الحادثة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع ؟؟ . . وأنها أصبحت وسيلة (فذة) لإشباع الترف الذي شاع فيه ؟ كيف يفهم هذا ؟؟ وبأي منطق يقال هذا ؟؟ وأي ترف كان في مجتمع الكوفة سنة ٢٦ هـ .

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة ، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا . . ولا . . ألا يجد فيها فخرًا للإسلام والمسلمين ؟؟ ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلا قرضًا ؟ ثم ألا يرى كيف كانت أمانة خازن بيت المال ، الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي)

واصطناع يد عنده ، وأي (يد) ؟ بالتأجيل فقط طبعًا (لا بالتنازل) ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت (موظفًا) (صرافًا) (خازنًا) يلاحي الأمير ، ويناصيه ويُغلظ له ؟؟!! أية (ديمقراطية) هذه ؟؟ ألا تهز أعطافه ؟ ألا تروعه ؟ ألا تبهره ؟

لو لم تلعب بهذا (المستشرق) الأهواء لرأى في هذا لونًا من الضبط الإداري ، وتنظيمًا مبكرًا لمالية الدولة ، وفصلاً بين سلطة الحاكم (والي الكوفة) وسلطة خازن بيت مال الولاية ، بحيث لا يملك الحاكم أن ينال من مال الدولة شيئًا ، أي شيء . كان من الممكن أن يقف (فلوتن) أمام هذا الموقف بين سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ، موقفًا آخر ، ينطلق منه إلى قضية أخرى ، قضية الإدارة والتنظيم الإداري للولاة ، وللدولة الإسلامية منذ عهدها المبكر .

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة ، والفاقة هي التي ألجات سعدًا إلى الاستدانة ؟؟ وهذا هو الواقع !!! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت ؟؟ وفي أي مجال كان ينفق في ذلك الحين ؟؟ فقد كانوا يعيشون عيش الكفاف !!!

ثم لو مد بصره قليلاً ، لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة ، وكيف أن سعدًا لشدة ألمه من عنف عبد الله بن مسعود ، وعدم رفقه وتأنيه به ـ رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم رب السموات والأرض . . فقاطعه عبد الله بن مسعود قائلاً : ويلك !! قل خيرًا ولا تلعن . وخاف أن يدعو سعد عليه ، فقال سعد عند ذلك : أما والله لولا اتقاء الله ، لدعوت عليك !!! كلمات تقطر تقوى وتندى بالحب والإخاء ، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف .

ولو قرأ بقية الصفحة لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة مكث خمس سنوات ، وليس على داره باب !!! فأي ترف ؟ وأي استدانة ؟؟

ولكن هكذا بهذا التحريف ، وبهذا التزييف استكره النص ، واستنطقه ما

لا ينطق به ، وقال على الطبري ما لم يقل ، وقلب الحسنات سيئات .

وكل هذا الخلل والتعسف إنما جاء (فلوتن) من الفكرة التي سيطرت عليه مسبقًا ، وهي أن المسلمين نالوا من الفتوحات أموالاً طائلة ، حققت هدفهم من الغزو ، وجعلتهم يعيشون عيشة الترف والسرف والبذخ ، فلما اصطدم بما قرأه في الطبري من قصة استدانة سعد بن أبي وقاص ، وتأخره في السداد ، مما يجعل الذهن ينصرف تلقائيًا إلى عجز مرتبات الولاة عن أن تقوم بشؤونهم ونفقاتهم ـ كان عليه أن يلوي عنق النص ، ويعتسف طريق فهمه وتفسيره ، حتى ينطقه بما يريد أن يثبته من شيوع حالة الترف وسيطرتها على المجتمع ، « وأن اللجوء إلى الاستدانة كان الطريقة الفذة من أجل إشباع الرغبات » . .

ولا يقف تعسف (فلوتن) وتزييفه للنصوص عند هذا الحد ، بل نجد أمثلة كثيرة ، نذكر منها ما قاله في ص ٦٨ ، فبعد أن ذكر أن الفتوح الإسلامية كانت من أجل الغنائم والأسلاب ، وأن تقسيم أربعة أخماس الغنائم على الجند كان الدافع وراء هذه الفتوحات التي منها « ما لم يكن في حقيقته سوى حملات من الإرهاب ، أو قطع الطريق ، ضد شعوب لا تبغي سوى السلام » قال بعد ذلك مباشرة : « ولعل ما حدث في سمرقند يعتبر مثالاً صارخًا لهذا النوع من (الفتوح) ـ يقصد ، كما وضح من كلامه آنفًا ، فتوح السلب والنهب وقطع الطريق ـ فقد استسلمت هذه المدينة على إثر معاهدة أبرمتها مع سعيد بن عثمان[1]، مقابل دفع سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن .

---

(١) هو سعيد بن عثمان بن عفان، رضى الله عنهما كان من قادة الفتح الأولين وأصيبت عينه في فتح سمرقند، وولى خراسان مات غدرا نحو سنة ٦٢ هـ، إذ قتله أحد الأعاجم من أجل سمرقند بالمدينة (خير الدين الزركلي ـ الأعلام) .

ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم في وقت لاحق (حسب الرواية العربية) (كذا) وطرد أهلها ، واحتل جنودُه ، منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق » . انتهى . بنص حروفه .

والحق لقد فزعت حين قرأت هذا الكلام ، لا من حدوث مثل هذه الشناعة من القادة المسلمين ، فمعرفتي بتاريخ أمتي ، والروح الذي سادته ، يجعل ذلك لا يخطر لي ببال ، ولكن فزعي من أن يصل الأمر في الاجتراء والافتراء إلى أن ينسب الغدر إلى جيش المسلمين ، ويضرب مثالاً للفتوح ، التي لا باعث لها ، إلا السلب والنهب .

وإمعانا في التغرير يلبس الرجل طيلسان العلماء ، ويرفع راية (المنهج) و (البحث العلمي) فيسند ظهره إلى المصادر والمراجع ، وقد اختار شيخ المؤرخين الطبري ، لينسب إليه هذا الكلام .

فلننظر ماذا عند الطبري ، وماذا قال ، ثم نرى هل يمكن أن يفهم منه هذا الكلام العجيب ؟؟

أولا ـ عزا قوله : إن سمرقند استسلمت لسعيد بن عثمان إلى الجزء الثاني ص ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ .

وليس في هاتين الصفحتين ، ذكر لسعيد بن عثمان ، ولا خبر عنه ، وإنما فيهما خبر عن فتوح (قتيبة بن مسلم الباهلي) لسمرقند ، وبينه وبين فتح سعيد بن عثمان لها نحو سبع وثلاثين سنة ، وذلك وارد في الجزء الثاني ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، وليس كما ذكر .

ونترك هذه دون تعليق .

ثانيا ـ ذكر (فلوتن) أن سعيد بن عثمان ، عاهد أهل سمرقند ، على دفع سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن ، وأسند ذلك إلى

الطبري ، أيضا في الموضع السابق نفسه ، الذي وهم فيه .

والذي في الطبري بنصه : « خرج إليهم سعيد بن عثمان ، وناهضه الصغد (أهل سمرقند) فقاتلهم ، فهزمهم ، وحصرهم فى مدينتهم ، فصالحوه ، وأعطوه رهنًا منهم خمسين غلامًا في يده من أبناء عظمائهم . . » أ هـ . بنصه .

فليس في كلام الطبري ذكر لمبالغ من المال أصلاً ، لا سبعمائة ألف ، ولا سبعة آلاف . .

وأما الرهائن ، فهم خمسون ، فكيف صارت ألفا ؟؟

هكذا . . خطأ في العزو لا أدري له سرًا !!

ثم تحريف في الأرقام والأعداد (يجعل الخمسين ألفا) .

ثم اختلاق وإضافة « زاد من عنده اختلاقًا ، أن المسلمين أخذوا سبعمائة ألف درهم » . . .

وذلك خضوعًا لهواه ، المسبق ، أليس « الفتح لنهب الأموال ، وقطع الطرق ؟؟ » فإذا لم يذكر الطبري أن المسلمين عاهدوا أهل سمرقند على مال فليتبرع هو بالمال للجنود « المترفين الذين هم في حاجة إلى المال ، ويقاتلون من أجله » .

وأما الرهائن ، فلست أدري الهدف من تزييف عددها ، وزيادته ، من خمسين إلى ألف ، أي عشرين ضعفا !!!

ثالثا ـ ذكر أن قتيبة بن مسلم استولى على سمرقند في وقت لاحق ، وطرد أهلها واحتل جنوده منازلها ، رغم التزام أهل سمرقند بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق ، وأضاف ذلك إلى الطبري ، وغيره من المصادر العربية ، وسماها (الرواية العربية) . .

فهذا اتهام صريح لقتيبة بن مسلم ، بنقض المعاهدة التي وقعها أهل سمرقند مع سعيد بن عثمان ، والتزموا بها ، ولكن المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم أعادوا

فتحها ثانية ، ودخلوها - رغم العهد - مغيرين (طبع لنهب الأموال والغنائم) .

فهل نجد ذلك في كلام الطبري ؟؟

هل قال الطبري : إن قتيبة بن مسلم استولى على سمرقند ، وغزاها مع أنها كانت ملتزمة بعهدها مع سعيد بن عثمان ؟؟

سنضع أمامك نص الطبري بحروفه ، وليس لنا فيه إلا شيء من الاختصار لا يذهب بشيء من المعنى :

جاء في ج ٢ ص ١٢٤٢ : « . . وخطب قتيبة الناس ، فقال : إن الله قد فتح لكم هذه البلدة[1]، في وقت الغزو فيه ممكن ، وهذه الصغد ، شاغرة برجلها[2] (الصغد أو السغد أهل سمرقند ، وينسب إليهم الإقليم الذي عاصمته سمرقند) قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، منعونا ما كنا صالحنا عليه (طرخون) (اسم قائدهم حاكم سمرقند) وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفسِهِ ﴾ (سورة الفتح : ١٠) فسيروا على بركة الله فإني أرجو أن يكون خوارزم ، والصغد ، كالنضير وبني قريظة ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأُخرَى لَم تَقدِرُواْ عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ (سورة الفتح : ٢١) أ هـ بنصه وحروفه .

فها هي عبارة الطبري تنطق صراحة بما يلي :

(١) : إن أهل سمرقند نقضوا العهد ، ومنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه .

(٢) : إن أهل سمرقند غدروا بقائدهم (طرخون) لأنه لم يوافقهم على نقض العهد .

---

(١) يشير إلى (خوارزم) التي انتهى منها قبيل أن يسير إلى سمرقند .

(٢) جاء في أساس البلاغة مادة : ش . غ . ر : « بلدة شاغرة برجلها : أى لا تمتنع من غزو » .

(٣) : إن قتيبة ملتزم بآداب الجهاد في الإسلام ، وأنه خاشع خاضع لله ، لاجيء إليه ، راج للنصر منه سبحانه فليس فيها روح (الجري وراء المغانم والنهب وقطع الطريق) .

وجاء في صفحة ١٢٤٩ من الجزء الثاني من الطبري بعد وصف المعركة ، وكيف كانت يقظة قتيبة ، وإعداد جنوده للقضاء على القوة العاتية التي جاءت من (الشاش) و (اخشاذ فرغانة) و (خاقان) لنجدة (سمرقند) وكيف أبلى قتيبة وجنوده أحسن البلاء في تبديد هذه النجدة : « . . فقال قتيبة (لقواده بعد المعركة) جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرًا . . وكسر ذلك أهلَ الصغد ، فطلبوا الصلح ، وعرضوا الفدية فأبى وقال : أنا ثائر بدم (طرخون) كان مولاي من أهل ذمتي . . » .

وفي الصفحة نفسها ، جاء في وصف المعركة واستماتة أهل سمرقند في الدفاع عنها : « . . أطال قتيبة المقام ، وثلمت الثلمة ، في سمرقند (أي في سور المدينة) فنادى منادٍ فصيح بالعربية يشتم قتيبة ، ونحن حول قتيبة ، فحين سمعنا الشتم خرجنا مسرعين ، فمكثنا طويلاً وهو ملح بالشتم ، فجئت إلى رواق قتيبة ، فاطلعت ، فإذا قتيبة محتب بشملة يقول كالمناجي لنفسه : حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ؟!! أما والله لئن أصبحت ، لأحاولن من أهلك أقصى غاية . . . » .

وفي ص ١٢٥٠ من الجزء نفسه : « ودخلوا سمرقند ، فصالحوهم ، وصنع (غوزك) (ملك سمرقند) طعامًا ، ودعا قتيبة ، فأتاه في عدد من أصحابه فلما تغدى ، استوهب منه سمرقند ، فقال للملك : انتقل عنها ، فانتقل عنها ، وتلا قتيبة : ﴿ وأنّه أهْلَكَ عادًا الُأولى ، وثمودَ فما أبْقىٰ ﴾ (النجم : ٥٠ ـ ٥١) . أ . هـ بنصه .

وبأدنى تأمل ، تنطق نصوص الطبري هذه بما يلي :

(١) وضوح الهدف الذي يقاتل من أجله المسلمون ، الدين والأعراض ، كما

جاء في دعاء قتيبة لرجاله ، وثنائه عليهم .

(٢) الوفاء بالعهد ـ لا الغدر به ـ حيث يرى قتيبة أن في قتاله لأهل سمرقند ثأرًا لحاكمها السابق (طرخون) الذي كان حليفًا للمسلمين ، وقتله أهل سمرقند ، وذلك قوله : « أنا ثائر بدم (طرخون) كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » . .

(٣) إن سمرقند قد عُرفت بالشقاق ، وأكثرت الثورة والغدر ، والعناد ، وهذا واضح من قول قتيبة ، وهو يناجي نفسه : « حتى متى يعشش فيك الشيطان يا سمرقند ؟ » .

(٤) سماحة قتيبة والمسلمين ، وحفاظهم على العهد ، فمع ضراوة المعارك ، واستنفار (غوزك) حاكم سمرقند للأقاليم المجاورة ، واشتداده على المسلمين ، كما هو واضح تمام الوضوح في الطبري ، مع هذا نجد المسلمين يؤمنون (غوزك) على نفسه ومن معه ، ثم يقبلون دعوته على الغداء ، ويؤاكلونه ، ويتلطفون معه ، إلى حد أنه طمع في أن يسلموا له المدينة ثانية ، لما رآه من حلمهم وحسن معاملتهم ، فلما استوهبها من قتيبة ، رفض ، وأمره بالانتقال عنها حتى لا تتكرر مأساة الغدر ، والقتال ، والمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين .

هذه نصوص الطبري ، بوضوحها وصراحتها ، وهذا ما تنطق به ، فأين نجد فيها ما قرأه ، واستنتجه منها (فلوتن) من أن قتيبة « طرد أهلها منها واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة ، مع القائد السابق ؟؟ » .

بم نسمي هذا ؟؟!!

واستكمالاً للمسألة من جميع أطرافها ، نقول : إن الطبري عالج فتح قتيبة لسمرقند في نحو أربع عشرة صفحة ، عرض فيها كعادته ـ أكثر من رواية ، لوصف المعركة ، وفتح سمرقند ، وكلها قريب بعضها من بعض والاختلاف

في بعض التفاصيل .

وليس في هذه الروايات كلها إشارة إلى غدر قتيبة بأهل سمرقند ، إلا ما ورد من أن محمد بن أبي عيينة قال لسَلْم بن قتيبة بن مسلم بين يدي سليمان بن علي : إن العجم يعيرون أباك (قتيبة) الغدر ، إنه غدر بخوارزم وسمرقند » أ . هـ .

فهذه الرواية كما نرى فيها ما يشبه أن يكون ملاحاة بين سلم بن قتيبة وابن أبي عيينة ، ولاحظ أيضًا أنه ينسبها إلى (العجم) ولم يأت لها بشاهد من أصحاب الرواية المسلمين ، ولاحظ أيضًا أن هذه الملاحاة كانت بعد المعركة بأزمان ، فقد توفي سلم سنة ١٤٩ هـ على حين كان فتح سمرقند سنة ٩٣ هـ .

فإذا عرفنا أن سلم بن قتيبة كان واليًا على البصرة في زمن الأمويين لمروان بن محمد ، ثم وليها في زمن العباسيين ثانية ، ولاه إياها أبو جعفر المنصور ، وأن سليمان بن علي الذي قيلت بين يديه هذه العبارة ، كان واليًا على البصرة من قبل ابن أخيه أبي العباس السفاح ، أي بين ولايتي سلم ، إذا عرفنا هذا أدركنا مقام المجاملة والمهالأة ، والمنافسة ، التي قيلت فيه هذه العبارة .

ونجد أيضا في الطبري إشارة أخرى إلى غدر قتيبة ، ونص هذه الرواية : « . . حدثني الذي سرحه قتيبة إلى الحجاج بفتح سمرقند ، قال : قدمت على الحجاج ، فأنفذني إلى الشام ، فقدمتها ، فدخلت مسجدها ، فجلست قبل طلوع الشمس وإلى جنبي رجل ضرير ، فسألته عن شيء من أمر الشام ، فقال : إنك لغريب ، قلت : أجل ، قال : من أي بلد أنت ؟ قلت : من خراسان ، قال : ما أقدمك ؟ فأخبرته . فقال والذي بعث محمدًا بالحق ما افتتحتموها إلا غدرًا ، وإنكم يا أهل خراسان للذين تسلبون بني أمية ملكهم ، وتنقضون دمشق حجرا حجرا » أ . هـ . بنصه .

هذا ما ورد في الطبري عن (غدر) قتيبة ، وهو لا يعني إطلاقًا أنه غدر بأهل سمرقند ، فاجتاحها ، وهي مقيمة على العهد الذي عاهدت عليه سعيد

بن عثمان ـ كما يزعم (فلوتن) ـ وإنما (الغدر) المذكور في هاتين الروايتين ، والذي يُعيّر به قتيبة شيء آخر ، يعنون به أن قتيبة باغتهم بالهجوم ، ولم يعلنهم بالحرب حتى يستعدوا له . وفي الفقرة التالية من هذا البحث مزيدُ بيان لهذا المعنى .

وإذا لم يكن هذا كله كافيًا ، فسنضع بين يديك مثالاً آخر ، من كلام (فلوتن) أيضا : جاء في صفحة ٦٨ قوله : « وفي عهد عمر الثاني (عمر بن العزيز) الذي آلت إليه الخلافة في دمشق ، شكا أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة الجديد ، وما نزل بهم من خراب وتدمير على يد قتيبة ، فأمر عمر بتعيين قاضٍ خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من الخبث ، ما يبدو واضحا لأي قارىء متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان ـ العرب وأهل سمرقند ـ وراء أسوار المدينة وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد معاهدة جديدة معهم .

فإذا ما انتصرت العرب ، وهو ما كان محتملاً (حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى إلى فتحها عَنوة وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري إلا إذا امتثلوا لتلك التي فرضها العرب عليهم . أي أن قرار القاضي لم يغير شيئا في وضع المدينة » أ . هـ .[1]

هذا هو نص كلام (فان فلوتن) ، وقد أسنده للطبري جزء ٢ ص ١٣٦٤ ، وإلى البلاذري : ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

وقبل أن نناقش هذه الفقرة نشير إلى ملاحظة قد يبدو أمرها هيّنًا ، ولكنها لاشك ذاتُ وزن وقيمة ، عند من يلتزم (بالمنهج) ويرعى حرمته ، ذلك أننا لم نجد أثرا لهذا الكلام عند البلاذري ، لا في الموضع الذي حدده ولا قبله ، ولا بعده ، ولا في كل ما ذكره عن فتح (سمرقند) .

ثم ننظر في عبارة (فلوتن) بكل تجرد ـ على تعبيره ـ فنجده يقول فيها

---

(١) بنص حروفه، الدولة الأموية والمعارضة، ٦٨ .

ما يأتي :

(١) : إن أهل (سمرقند) شكَوا إلى عمرَ بنِ عبد العزيز ، ما أصابهم من خراب وتدمير وظلم على يد (قتيبة) .

(٢) : إن الخليفة قبل الدعوى ، وعين لهم قاضيًا ينظر في وقائعها .

(٣) : إن القاضي رأى أنهم محقون .

(٤) : إن حكم القاضي كان خبيثًا بينًا واضحًا لكل من يقرؤه بتجرد .

(٥) : إن خبث الحكم جاء من أن القاضي حكم بأن يتحارب الفريقان - العرب وأهل سمرقند - خارج أسوار المدينة ، فإما انتصر العرب ، فدخلوها عَنوة ، وإما استسلم أهل (سمرقند) فدخلها العرب صلحًا .

(٦) : إن خبث هذا الحكم ظهر في فرضه على أهل سمرقند أن يخرجوا خارج أسوار المدينة « ففقدوا خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها » .

(٧) : إن قرار القاضي لم يغير من الواقع شيئًا .

هذه الأحكام كلها جاءت في هذه العبارة الموجزة من كلام (فلوتن) ، وقال إنه استقاها من الطبري .

فمـــاذا عـــند الطـــــبري ؟؟

سنضع أمامك نصَّ الطبري كاملاً ، لنرى هل يمكن أن نفهم منه هذه الأحكام ، جاء في الطبري ما نصه : « قال أهل (سمرقند) لسليمان (واليهم) : إن قتيبة غدر بنا ، وظلمنا ، وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فائذن لنا ، فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين ، يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أُعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ،

فوجهوا منهم قومًا ، فقدموا على عمر ، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري (أي والي سمرقند) : إن أهل سمرقند قد شكَوْا إليّ ظلمًا أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي ، فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم ، فأخرجهم إلى معسكرهم ، كما كانوا ، وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

فأجلس لهم سليمانُ جُميعَ بنَ حاضر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم ، وينابذوهم ، على سواء ، فيكون صلحًا جديدًا ، أو ظفرًا عَنْوة .

فقال أهل السغد : بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربًا ، وتَرَاضَوْا بذلك ، فقال أهل الرأي (أي منهم) : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمناهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ، ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ، ولم ينازعوا » أ . هـ . بنص حروفه .

وحين نقف أمام هذا النص (متجردين) ـ كما ينصحنا فلوتن ـ فهل نجد فيه أن القاضي حكم بإخراج أهل سمرقند خارج أسوار مدينتهم ، وأفقدهم بذلك خاصية الدفاع عنها ، داخل أسوارها ؟ إن نص الطبري أمامنا واضح تمام الوضوح ، وقد جاء ذكر هذا الأمر في عبارتين هما :

(الأولى) ـ ما جاء في رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز : « . . فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

(الثانية) ـ ما جاء في منطوق حكم القاضي : « . . أن يخرج عربُ سمرقند ، وينابذوهم على سواء . . . » .

فأين في هذا الكلام إخراج أهل سمرقند خارج أسوار مدينتهم ؟؟

إن العبارة الأولى ، عبارة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تأمر إن قُضي لهم ،

أن يخرج القوات الإسلامية من المدينة ، لا أن يخرج أهل سمرقند ، ولقد قطع الخليفة رضي الله عنه أي احتمال للخطأ في الفهم ، ففسر المقصودين بالإخراج بقوله : « كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة » . أي عودة الوضع إلى ما كان عليه « قبل أن يظهر عليهم قتيبة !! » وهل كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة خارج أسوار مدينتهم ؟؟ إن عبارة الخليفة هذه لم تدع مجالاً لوهم من يتوهم أن الضمير في قوله : « فأخرجهم : يعود على أهل (سمرقند) عملا بالقاعدة التي تقول : « ان الضمير يعود على أقرب مذكور » وهم هنا الشاكون : أهل سمرقند ، ثم إن العرب لم يرد لهم ذكر في اللفظ حتى يعود عليهم الضمير . . **قطعت العبارة الأخيرة : « كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة » ، هذا** الوهمَ ، مع أن المقام عند من يلحظ السياق ليس في حاجة إليها ، ذلك أن الشكوى كانت من (دخول المسلمين) : (جيش قتيبة) فكان قوله : « فإن قضى القاضي للشاكين فأخرجهم » كافيًا في بيان أن المراد بالضمير هم المسلمون، فهو بمثابة ، قوله : « شكَوْا إليّ فإن حكم لهم القاضي فأزل شكواهم ، أي سبب شكواهم » وسبب شكواهم ، هو دخول جيش المسلمين مدينتهم ، وإزالة السبب يعني إخراجهم .

كان هذا وحده كافيا ، لأن يفهم القارىء (المتجرد) مَن المقصود بالإخراج ، ولكن جاءت العبارة الأخيرة في رسالة الخليفة « كما كانوا وكنتم ، قبل أن يظهر عليهم قتيبة » ، لتقطع أي وهم ، مع أن ما قبلها كان كافيًا للفهم السليم ، فجاءت بمنزلة التأكيد .

وأما العبارة الثانية ، وهي : « . . . . فقضى (القاضي) أن يخرج عرب سمرقند ، إلى معسكرهم ، وينابذوهم على سواء » فهي أيضا في غاية الوضوح عند القارىء المتجرد ، وليس فيها أي لبس أو احتمال ، فقد وضع القاضي الاسم الظاهر ، مكان الضمير « يخرج العرب » ثم أيضا أكد المعنى بقوله : « وينابذوهم على سواء » أي لا يبدأوهم بحرب إلا بعد أن يعالنوهم بها ويعلموهم .

فمن أين أتى القارىء (المتجرد) فلوتن بأن حكم القاضي جاء بإخراج أهل سمرقند من مدينتهم ، وبالتالي أفقدهم خاصية الدفاع عنها داخل أسوارها » ؟ من أين أتى بهذا الفهم المتعسف العجيب ؟ إن الأمر هنا ليس أمر خطأ ، أو وهم ، فالعبارة واضحة للقارىء (المتجرد) كما رأينا وإنما هو التعسف ، وليّ أعناق النص ، ليصل إلى النتيجة التي رتبها على هذا الفهم وهي الحكم بخبث القاضي وسوء نيته ، حيث لم يستطع إنكار صدق أهل سمرقند ، في دعواهم ، فتظاهر بالإنصاف وأنه حكم لهم ، ولكن جاء حكمه لا قيمة له حيث « لم يغير شيئا في وضع المدينة » . .

هذا هو السر في لي عنق النص ، والتعسف في تفسيره .

إن الرجل راعه ـ وهو المتحامل على الفتوحات العربية أبشع التحامل ـ أن يرى هذه الصفحة الناصعة ، وأعشى ضوؤها بصرَه ، فراح يتلمس في ظلام الحقد وسيلة يطمس بها هذه الروعة ، فلم يجد إلا هذا التزييف والتحريف ، لكي يفرج به عما يعانيه من مكنون حقده ، فيرمي قاضينا العظيم (بالخبث) قائلا : « فجاء قراره من الخبث ، ما يبدو واضحًا لأي قارىء متجرد » !! فأين الطهارة إذاً ؟؟

ونترك الآن استكراهه للعبارة ، ولي عنقها ، وإنطاقها بما لا تنطق به ، ونناقشه فيما سلم به وخطه بيمينه ، وذلك قوله : « شكا أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة ، وما نزل بهم من خراب ، وتدمير على يد قتيبة » كيف يمر الباحث (المتجرد) على هذه (العجيبة) ولا يلتفت إليها ، بلدة مفتوحة ، فتحها سعيد بن عثمان ، ثم عادت فانتقضت ـ ذكر ذلك فلوتن بنفسه في الموضع نفسه ـ ففتحها قتيبة ثانية ، بعد معارك شرسة وصفها الطبري ، وقرأها (فلوتن) طبعًا ـ ذكرنا شيئا من ذلك آنفًا ـ تفكر في الشكوى إلى الخليفة ، مجرد خطور هذا بالذهن ، بذهن أهل المدينة المفتوحة ، أليس لهذا مدلول ؟

من الشاكي ؟ ومن المشكو ؟ ومن المشكو إليه ؟

تشكو بلدة مهزومة مفتوحة ، تشكو القائد الفاتح ، تشكوه لحاكم الدولة التي كلفته بالفتح !!! أيمكن أن يأتي هذا من فراغ ؟ ألا يشهد ذلك بأن هؤلاء الشاكين كان عندهم ـ لاشك ـ علم بأن وراء هؤلاء الفاتحين نظمًا وأخلاقًا ومبادىء تحكمهم ، ألا يشهد ذلك بأن هذه المبادىء وهذه النظم قد تداولها سمعُ الدنيا ، وملأت آفاق الأرض حتى سمع بها من في سمرقند على بعد ما بين سمرقند ودمشق ، وعلى قلة وسائل الاتصال والإعلام آنذاك ، أن يأمل ـ مجرد أمل ـ مَنْ في سمرقند أن يشكو قائدَ الجيش وجيشَه في دمشق ، وأن يكون ذلك قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان ؟ فهذا وحده كاف أن يروع الباحث (المتجرد) ليقف ويبحث ويتأمل ، ليدرك سرَّ هذه المبادىء ، وهذه الأخلاق وهذه القوانين ، بل سر هذا الدين الذي بنى هذا كله .

ثم إذا لم يلفت نظره ، ويبهره تفكير أهل سمرقند في الشكوى . . . . ألا يروعه أنهم استأذنوا واليهم ، وأعلموه أنهم ذاهبون إلى دمشق للشكوى إلى الخليفة ، فأذن لهم[1] !!! يا سبحان الله !!! أية سماحة !! وأية أخوة !! وأية رحمة !! تصل إلى هذا الحد .

ثم إذا لم يلفته ذلك إلى سماحة الإسلام ، وعظمة مبادئه ، ألا يروعه استقبال الخليفة لهذا الوفد ، وهو الحاكم العام لتلك الدولة ، التي كانت تمتد من كابل شرقًا إلى طنجة غربًا ، ومن جبال البرانس شمالاً إلى جبال النوبة جنوبًا ، لم تشغله شؤون هاتيك البلاد المترامية الأطراف عن مقابلة الوفد الشاكي والاستماع له ، « لم يحوله على المختص بشؤون الشرق الأوسط » ! ثم قبل الدعوى وأمر بالحكم فيها .

---

(١) من طريف التعليقات التي يصح أن تذكر هنا أن ثورة مصر سنة ١٩١٩ م قامت بسبب منع الوفد المصري من السفر إلى مؤتمر الصلح بباريس، واستنجاز بريطانيا وعدها بالجلاء . . فقد ذهب أعضاء الوفد يستأذنون المندوب السامي فلم يأذن لهم وزاد فقبض عليهم ونفاهم خارج مصر ، فهاج الشعب واندلعت المظاهرات، ثم كانت الثورة .

ثم جلس القاضي للحكم ، ونظر في القضية ، وحكم قاضي الدولة الفاتحة ، على قائد دولته ، وجنوده . قاضٍ يحكم على دولته بإخلاء جيشها وإخراجه من المدينة التي دخلها عَنوة !!!

أيضرب فلوتن عن كل هذا صفحًا ، وهو بين عينيه ، قرأه عند الطبري ، ونقله عنه في كتابه ، ولا يلفته ذلك ، لا تلفته هذه الصفحة الرائعة من حضارتنا ومن صفحات فتوحاتنا ، فتوح العدالة ، والرحمة ، وتحرير الإنسانية ؟ ! لم تكن الدنيا بعدُ قد عرفت القانون الدولي العام ، ولا القانون الدولي الخاص ، ولم تكن بعدُ قد تفتقت الأذهان عن عصبة الأمم الموءودة ، ولا مجلس الأمن المعوج ، ولا الجمعية العامة للأمم المتحدة الشلاء .

لم يكن شيء من ذلك ، ولكن أمتنا قد عرفت العدل ، والإنصاف ، في السلم والحرب فلم تعرف الدنيا ، ولن تعرف ـ إلا إذا عاد المسلمون لقيادتها ـ حربًا يلتزم أصحابها ـ منتصرين أو منهزمين ـ بمبادىء الحق والأخلاق إلا فتوحات الإسلام ، ولن ترى الدنيا قاضيًا ـ بعد قاضينا ـ يحكم بإجلاء جيش بلاده عن المدينة التي فتحها وبذل في سبيل دخولها أرواحًا غالية ، وساعات عصبية ، وأثقالٍ غالية ؛ كل ذلك لاحتمال أن القائد لم يكن قد عالنهم بالحرب .

إن المستشرق (فان فلوتن) عاش حياته في القرن التاسع عشر[1] ، قرن الاستعمار ، ورأى بلاده (أوربا) وهي تجتاح دولنا وتتقاسمها أحيانًا بالمعاهدات والاتفاقات ، وتتقاتل وتتنازع عليها أحيانا أخرى ، وفي أثناء كلامه يستخدم كثيرًا لفظ (احتلال) واصفًا به الفتوحات الإسلامية ، ألم يسائل نفسه ما بال قومه ، يفعلون كل هذا ، أو ما بال دولته (هولندا) تصنع ما تصنعه بالدول التي احتلتها فأذاقتها الهوان ؟ .

وإذا نعجب من هذا الباحث (المتجرد) الذي لم يرُعه ذلك ، ولم تخطف

---

(١) توفى سنة ١٩٠٣ م .

بصره نصاعة هذه الصفحة ، فإن الذي لا ينقضي العجب منه هو موقفه الغريب من بقية القصة ، فقد عمي عنه تمامًا ، وأخفاه عن قارئه ، مع أنه جزء من القضية والحكم والتنفيذ ، وتلك جريمة منهجية أخرى أبشع وأفظع ؛ فقد كان بين أصابعه ، وملء عينيه اللتين في رأسه ، قول أهل سمرقند ، المحكوم لهم ونصيحة ذوي الرأي منهم ، فقد حكاه الطبري عنهم ، فقال : « فقال أهل السغد (أي بعد الحكم) : بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربًا ، وتراضَوْا بذلك .

فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم ، وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمنَّاهم فإن حُكم لنا عدنا إلى الحرب ، ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوةً في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ولم ينازعوا »[1].

ويلوح لي ـ وهو صحيح إن شاء الله ـ أن أهل الرأي الذي حكى الطبري كلامهم هذا لم يكونوا مؤيدين للشكوى إلى الخليفة ـ ولرفع الدعوى ؛ إذ كانوا يرون أن ما هم فيه أفضل وأولى ، . . وقد خالطنا هؤلاء القوم وأمناهم ، فهم مع المسلمين في أمن ونعمة وعافية ، ويخشَوْن أن يجددوا العداوة مع المسلمين لو حكم لهم القاضي ، فلو كان هؤلاء ، في ذل الاحتلال ومهانة السيطرة ، وفي ضيق الظلم ، والعدوان والنهب ، لكانت الحرب هي الملجأ والمخلص مما يعانون أيا كانت نتيجتها ، لكن أن يرتاح (أهل الرأي) من أهل سمرقند إلى المسلمين الفاتحين ، ويرَوْن أنه لا داعي لشكواهم ، ولو ضمنوا الحكم لهم ، (لأنهم خالطوهم فعرفوهم وأمنوهم) فهذا شيء لا يعجب المستشرق الباحث (المتجرد) ربيب (الأكاديميات) وسليل (الجامعات) ، ولأنه لا يعجبه ، فيجب أن يبتره من النص حتى لا ينقض عليه كتابه ويهدم الأساس

---

(١) ابن جرير الطبري ، تاريخ الطبري : ٥٦٧/٦، ٥٦٨، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ م جـ ٢، ص ١٣٦٤ ، ١٣٦٥، من طبعة أوروبا .

الذي قام عليه ، وهو تبشيع أمر الفتوح الإسلامية ، وإثبات أنها ما كانت إلا للنهب وقطع الطريق ، وليس هذا من (فلوتن) بغريب ، ولا عجيب ، فالرجل يكتب لبني قومه ، كما قلنا ، لغرض ولهدف محدد ، فلا تثريب عليه .

ولكن العجب كل العجب من بني قومنا الذين يسمون هذا الكلامَ (بحثًا) ويسمونه (علمًا) .

هل غدر قتيبة ؟؟

كنا قد ناقشنا آنفًا زعم (فلوتن) « أن قتيبة استولى على سمرقند وطرد أهلها ، واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق سعيد بن عثمان بن عفان » وأكدنا أن الغدر كان من أهل سمرقند ، إذ غدروا بقائدهم (طرخون) الذي عقد الصلح مع المسلمين ، ونقضوا المعاهدة وأعلنوا عدم التزامهم بها ، مما دعا المسلمين أن يوجهوا إليها جيشًا بقيادة قتيبة لإعادة فتحها ، فلم يكن الغدر من قتيبة ، وإنما كان من أهل سمرقند .

ثم ذكرنا شكوى أهل سمرقند إلى عمرَ بنِ عبد العزيز ، وأنهم شكَوْا إليه أن قتيبة غدر بهم ، ورأينا أن القاضي حكم لهم .

فهل يعني ذلك صدق كلام (فلوتن) من غدر قتيبة ، إذ قد حكم القاضي لهم ، بأن قتيبة غدر بهم ؟؟

لا غـــــــدر

إن (الغدر) الذي ادعاه (فلوتن) ونفيناه أشد النفي ، وأقمنا الدليل على كذب ادعائه ، غير (الغدر) الذي حكم به القاضي .

فالغدر الذي يعنيه (فلوتن) قد وضحنا مفهومه من كلام فلوتن نفسه قبلاً ، أكثر من مرة . أما (الغدر) الذي حكم به ، القاضي ، وصدق قول أهل سمرقند به ، فمفهومه يختلف تمامًا عما يعنيه (فلوتن) . . إن الغدر الذي ادعاه أهل سمرقند ، هو أن قتيبة فجأهم من غير أن يعالنهم بالحرب ، قبل أن يهجم عليهم ، وهذا واضح تمامًا من الرواية التي أوردها الطبري وأشرنا إليها آنفًا ، من أن محمدَ بنَ أبي عيينة قال في ملاحاة له مع سَلْم بن قتيبة : « إن العجم يعيرون أباك (قتيبة) الغدر ، إنه غدر بخوارزم ، وسمرقند »[1] .

فالعار هنا يُلحقونه بقتيبة ، ويعيرونه به ؛ لأنه هـاجمهم قبل أن يعلنهم أو ينذرهم ، على غير ما هو معروف من قواعد القتال وآدابه في الإسلام ، ولو كان الأمر كما ادعى (فلوتن) : « هاجمهم واحتل بلادهم وطردهم منها ، رغم التزامهم بالمعاهدة التي عقدوها ، قبلاً مع سعيد بن عثمان ، لو كان الأمر كذلك ، لكان التعيير للمسلمين وللقيادة الإسلامية ، وللحكم الإسلامي كله ، فتسيير جيش مثل هذا إلى سمرقند ليس من عمل قتيبة ، وإنما من عمل قيادة الدولة ، ومحال أن ينفرد قتيبة بتوجيه جيش إلى معركة كهذه ، من غير إذن الخليفة ، وقادة الدولة ، ولو سلمنا جدلاً ، أن قتيبة انفرد بتوجيه الجيش ، وتسييره إلى معركة سمرقند وكان ذلك برأيه هو ، فإن ذلك ـ لو حدث ـ لا يعفي الدولة الإسلامية من الخطأ ـ إذا كان ـ أعني أن حرب سمرقند وإعادة

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك : ٦/ ٤٧٦ .

فتحها ، وتكليف قتيبة بقيادة ذلك الجيش أمر لم يُعيَّر به أحد ، ولم يشك منه الشاكون من أهل سمرقند ، ولم ينظر فيه القاضي ، والذي قبله منهم القاضي هو هجوم قتيبة قبل أن يعالنهم ، وهذا هو الذي سموه (غدرًا) وكذلك كان يسمى فعلاً ، فقد روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي الفيض عن سليم بن عامر قال : « كان معاوية يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم عهدٌ إلى أمد ، فأراد أن يدنو منهم حتى إذا انقضى الأمد غزاهم من قريب ، فإذا بشيخ على فرس يقول : الله أكبر . وفاءاً لا غدراً يا معاوية . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتى ينقضي أمد العهد ، أو ينبذ لهم على سواء ، قال : فبلغ ذلك معاوية ، فرجع بجيشه »[1].

فهذا معاوية ما كان يريد أن يهجم على الروم قبل أن ينقضي الأمد ، ولكن يريد أن يقرب منهم حتى إذا انقضى الأمد أسرع بالهجوم عليهم ـ بعد انقضاء العهد ـ قبل أن يعلنهم ، وحتى يفجأهم من غير أن يستعدوا ، فجاءه التحذير من أحد رجاله ، ذاكرًا له أن هذا هو (الغدر) وحذره وذكره بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي يوجب الإنذار ، والمعالنة ، (ينبذ لهم على سواء) أي يعالنهم باطراح العهد وبدء القتال ، فرجع معاوية .

وما أظنه من قبيل الاستطراد، إذا قلنا : إن هذا الهجوم من قتيبة بدون معالنة، والذي يسمى (غدراً) كان اجتهاداً من قتيبة، فقد كان نقضهم العهد وامتناعهم عن الوفاء بما عاهدوا عليه من قبل، وقتلهم لقائدهم (طرخون) لعدم متابعته لهم في ذلك، كان ذلك منهم بمثابة الإعلان، والاستعداد والمبادأة فلعل قتيبة رأى أنه بهذا هو المُعْلن بالحرب، وأنهم البادئون و (المنابذون) وفيما رأينا من وصف المعركة، وتحصنهم وراء أسوار

---

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ، الجهاد المشروع في الإسلام : ٦٩ ـ رئاسة المحاكم الشرعية ، دولة قطر ، الدوحة ، بدون تاريخ .

مدينتهم، وعناء المسلمين في فتح ثلمة في السور، كل هذا يشهد أنهم كانوا على أهُبة كاملة للحرب وأن قتيبة كان على صواب في تقديره، أنهم هم المعالنون بالحرب، وأن هجومه عليهم ليس غدراً .

وأما أن حكم القاضي جاء مخالفاً لتقدير قتيبة، فذلك راجع للوزن والتقدير للقرائن والأحوال، ولا أريد أن أقول : إن الشاهد يرى مالا يراه الغائب، وربما لو كان قتيبة موجوداً يوم نظر القضية، لاستطاع عرض الظروف والأحوال، والهيئة التي كان عليها الميدان ساعة بدأ المعركة، ولكان للقاضي رأى آخر .

وعلى أية حال لا حرج على قتيبة إن أخطأ في اجتهاده هذا، وهذا الخطأ على أية حال هو الذي أتاح للتاريخ أن يسجل حكم هذا القاضي، الذي يحكم على جيش أمته أن يخرج من المدينة التي احتلها، حتى تشهد الدنيا أي فتح هذا وأي مجد هذا، كان فتح رحمة ونعمة، وتحرير، وعدالة . . . .

ونعود لنختتم بما جردنا الحديث له أصلا، وهو أن الغدر الذي حكم به القاضي على قتيبة، لا علاقة له أصلاً، من قريب أو من بعيد، بما يدعيه ويفتريه، (فلوتن)، ومن عجب أنه إمعاناً في التورية، وادعاء الأمانة العلمية، يضع هامشاً في صفحة ٦٩ برقم ١١ نصه : « أشرت إلى هذه المراجع ليعود إليها القارىء إذا شاء ذلك » .

وها قد رأينا كيفية تعامله مع المراجع، التي يوهمنا بأمانته، بتأكيده للرجوع إليها، ويسمون هذا بحثاً وعلماً . . . .

د ـ التفسير بالإسقاط

ونعني بهذا إسقاط الواقع المعاصر المعاش، على الوقائع التاريخية الضاربة

في أعماق التاريخ، فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة ومايعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم، فيتناولون بيعة أبي بكر يوم السقيفة، وكأنهم، يحللون انتخاب الرئاسة في أمريكا بألاعيبها وفضائحها الحزبية، ويفسرون خروج طلحة والزبير على عليّ رضى الله عنهم جميعا، بأنه خوف على ثرواتهما التي جمعاها، أثناء الفتوح، ومن غنائم الفرس، والروم، وكأنهم ينظرون إلى الصراع بين شركات الصلب، أو شركات السلاح، ومؤسساتهم الرأسمالية الضخمة، التي تصارع، للتأثير على السلطة وعلى صَناعة القرار، مع أن أول وأبسط قواعد تفسير النصوص، وفهمها، هو المعرفة التامة لروح العصر، ولما يسمونه، جو النص، ثم المعرفة بحياة قائل النص : نشأته، وثقافته، وحياته، وأعماله .. هذه المبادىء يتعلمها الشادون المبتدئون، وفي الصفوف الأولى من التعليم المتوسط .

ولكن هؤلاء المستشرقين يغضون الطرف عن قواعد المنهج، بل يدوسون قواعد المنهج ويمتهنونها .

فمن عرف تاريخ أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، وحياتهم، وكيف جاهدوا في الله بأموالهم وأنفسهم، وكيف كانت الآخرة أمام أعينهم، وكيف كانت حقارة الدنيا في نظرهم، كيف يستطيع أن يفسر مادار يوم السقيفة، على أنه اتفاق بين الثلاثة، على أن يُعين عمرُ وأبو عبيدة أبا بكر، على شرط أن يعهد بها أبو بكر لعمر، ثم يعهد بها عمرُ إلى أبي عبيدة !! إن هذه صورة منتزعة من واقع انتخاب عصرنا ومؤامراته، ويستحيل على من عنده أدنى معرفة برجال صدر الإسلام، وبروح العصر، ومشاعر المسلمين يوم السقيفة ، أن يقبل هذا التفسير الذي يُسقطونه من داخل أنفسهم على وقائع تاريخنا .

وكيف يقال : إن طلحة والزبير كانا يخشيان على أموالهما، وهما من هما تضحية وبذلاً في سبيل الله، إن هذا الطراز من الرجال الذين كانوا

لا يبالون أيقعون على الموت أم يقع الموت عليهم، كيف يخافون على عرض زائل ؟ وقد ظهر كذب هذا التفسير وزيفه، إذ ثبت بأصدق الروايات، وأوثقها، أن الزبير يوم مات لم يكن ماله يكفي لسداد ديونه[1] .

ومن طرائف التفسير بالإسقاط، أو الإسقاط في التفسير، ما رأيناه عند المستشرق الإنجليزي (منتجومري وات) إذ فسر ما كان من خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم، في غار (حراء) قبيل البعثة، بأنه كان هروباً من حر مكة، وابتراداً في رأس الجبل، جبل حراء، حيث كان محمد (صلى الله عليه وسلم) فقيراً لا يستطيع السفر إلى الطائف، مثل أغنياء قريش !![2]

فهو هنا أمام حدث، قديم وقع في مكة، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، ولكنه يفسره ويعلله، بروح عصره هو، ويُسقط عليه مشاعر واتجاهات، وعادات وقيم عصره، الآن، يفسره وفي ذهنه، رحلات المصطافين في عصرنا هذا، وكيف يُعدون لها، وينفقون في سبيلها، يفسر هذا الحدث وفي ذهنه قمم الجبال المعشوشبة، التي يكسوها الجليد والبرد .

ولم يكلف نفسه، بل لم يستطع أن يدرك واقع المجتمع المكي، آنذاك، بل واقع المناخ في مكة، والفرق بين درجة الحرارة في شعاب مكة ورأس جبل حراء، وهل حقاً تنخفض الحرارة في رأس (حراء) عند الغار ـ وهو مازال موجوداً للآن ـ انخفاضاً ملموسا يجعل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلجأ إليه ؟ ! لم يذكر أحد قط ممن كتبوا عن مكة وأهلها آنذاك، أن الفقراء كانوا يصطافون بالجبال، والأغنياء كانوا يصطافون بالطائف .

إن الرواية الصحيحة تقول : « إنه صلى الله عليه وسلم حُبب إليه الخلاء، فكان يذهب إلى غاز حراء يتحنث فيه ويظل به الليالي ذوات العدد، قبل أن يعود لأهله ليتزود لمثلها » . . . .

---

(١) لسنا لعلاج هذه القضية الآن ، وإن شئتَ فراجع بحثا لنا بعنوان : « الزبير بن العوام ، الثروة والثورة » .

(٢) محمد « صلى الله عليه وسلم » في مكة : ٨١ .

فكيف يختلي بجبل هو مصطاف الفقراء من أهل مكة، أم ياترى كان محمد « صلى الله عليه وسلم »، هو الفقير الوحيد في مكة، فخلا له جبل حراء ؟؟

أم تراه هو الوحيد الذي أدرك السر الخطير، وهو برودة رأس الجبل ؟ وضن به على غيره، فلم يشاركه في خلوته بالجبل أحد ؟؟

أم يا ترى كان في مكة جبال بعدد فقرائها، لكل فقير ـ لايقدر على السفر إلى الطائف ـ جبل ؟؟

ثم أين تقع الطائف من مكة ؟؟ ألم يقرأ أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ذهب إلى الطائف ماشياً بعد أكثر من عشر سنوات، أى بعد أن كبرت سنه، حينما اشتد إيذاء قريش وعنادها، ليعرض الدعوة على شيوخ ثقيف ؟؟

ثم كيف يستقيم له هذا الفهم العجيب، والتفسير الغريب، (العجز المالي) مع حديثه في كتابه هذا نفسه ص ٧٣ ـ ٧٥ عن زواج محمد صلى الله عليه وسلم، من خديجة وثراء خديجة، فهل كانت خديجة (رضي الله عنها) عاجزة عن إعطاء محمد صلى الله عليه وسلم، ناقة يسافر عليها إلى الطائف، مع نفقات الإقامة .

ثم لماذا لم يسأل نفسه عن السبب في عدم انتقال خديجة إلى الطائف لتصطاف بها مثل أثرياء مكة ؟؟

إن السبب في هذا التفسير العجيب الغريب، هو تصور واقع الصيف والمصطافين في عصرنا هذا : نفقات ورحلات وسيارات وفنادق . . . . . الخ .

ولو حاول أن يستشرف الواقع، في عصر البعثة، ويتمثل أحواله، لأدرك أن الأمر على غير مافسر وقدر . وإنما هو كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها، (كانت الخلوة للتحنث) .

ونجد هذا (التفسير بالإسقاط) عند (لا مانس) حين يحدثنا عن مكة والمدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فعلى حد تعبير (دينيه) « يفسد متعمدا الصورة التاريخية : فيعطينا صورة أوربية حديثة، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن حينما يتحدث في جزيرة العرب عن الحملة الصحافية، عن الماليين في بنك مكة . مليارات، النقابة القرشية، الضريبة على الدخل، طبقة العمال، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة، ديوان ذي الجلال، وزارة الله، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة »[1] .

هـ ـ منهـج العكـس

هو نوع آخر من الفساد، يعتري البحوث والدراسات الاستشراقية، وهو غير المنهج المعكوس (المقلوب) أي الذي توضع فيه النتائج مقدماً، ثم يكون البحث عن الأدلة التي تؤيدها، فذلك قد أشرنا إليه قبلاً، حين تحدثنا عن الخضوع للهوى، وعدم البراءة من سلطانه، وجعلنا من آثار الخضوع للهوى هذا المنهج المعكوس .

أما منهج العكس، فنعني به شيئاً آخر، وهو أن ينظر الباحث في النصوص والوثائق، والروايات، فإذا قالت شيئاً، فعليه أن يدرك أن الصواب هو عكسه تماما .

يقول ناصر الدين دينيه (الذي كان من كبار المستشرقين الفرنسيين وهداه الله للإسلام) ، وهو ينتقد أعمال المستشرقين وأبحاثهم : « إن منهج العكس هو ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء، فيلقيها

---

(١) انظر : د . عبد الحليم محمود ، أوربا والإسلام : ١٣٦ .

ـ متعمداً ـ إلى عكسها وكلما كانت الأخبار أوثق بدت ـ قوية جامحة ـ الرغبة في البراعة من ذلك الذي يتبع هذا المنهج، ولما كان ينبغي أن يستند إلى دعامةٍ مّا، فقد تبنى أصحاب هذا المنهج الفكرة التي تقول : « البشر يعملون غالباً على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها » .

ويستمر ناصر الدين قائلاً : « وهذه فكرة لايمكن أن تتخذ كمبدأ عام، وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد، وعكس صورة الطبيعة كلها عكساً تاماً .

إن جميع القديسين إذاً أشرار . وجميع الأنبياء طالحون، وجميع الشجعان جبناء، وجميع الأديان تهريج .

وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح (موضة) . .

ولقد أراد بعض الظرفاء أن يسخر من أتباع هذا المنهج، فألّف رسالة دلّل فيها في براعة بارعة، على أن نابليون لم يوجد قط، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربي . .

ثم يستمر (دينيه) مدللاً على فساد هذا المنهج، وكأنه يوجه كلامه لمتعصبة المستشرقين، فيقول : وإننا لو نظرنا في الأناجيل، من هذه الوجهة واتبعنا هذه السنة، لوجب أن نتناول كل حسنة فيها، ونعكسها . . وإذن لما بقي جديرا بمودة (القسيس) إلا (هيرود) و (يهودا) اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين الأخيار .[1] .

ولقد كان المستشرق (لامنس) اليسوعي من أكثر المستشرقين، اعتماداً على منهج العكس، وهذه نماذج من ثمار استخدامه لهذا المنهج :

إن مما لاشك فيه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان شجاعاً، لقد

---

(١) انظر د . عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ أوربا والإسلام : ١٢٨ ، ١٢٩ .

كان يقود الجيوش في الغزوات، ولم تطر نفسه شعاعاً في أية واحدة، منها، ولا يوم أحد ـ وقد ابتلي المؤمنون ولزلوا زلزالاً شديداً ـ ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق، يوم أن زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر ، ولم ترعه النبال كالمطر، يوم حنين . . ومع ذلك ، فإن « لا مانس » يصفه بعدم الشجاعة، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة، يقول :

« زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا، ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة . . إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام »[1] .

ويرد (ناصر الدين دينييه) هذه الفرية ، مؤكدًا شجاعة العرب ، مذكراً إياه بمواقفهم في الحرب العالمية ، ومساندتهم للحلفاء (قوم لامانس) وأحاله على شهادة القواد الغربيين للمقاتلين المسلمين ، فقال :

« والرد على القسيس اللبناني بسيط ، ويكفي أن نُسدي إليه هذه النصيحة : وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنودُ المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعاً عما اعتقدوه حقاً ، فكانوا من عوامل النصر في الحرب الكبرى ، لقد أثارت فرق الهجوم منهم إعجاب العالم أجمع ، وإن هذه الشهادة في أسلوبها العسكري الموجز صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية والبطولة لدى العرب المغاوير .

وإن سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبي النفيس ، ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين ، لا يمتون إلى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين .

ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتحنث في غار حراء ،

---

(١) السابق نفسه : ١٢٩ ـ ١٣٠ .

ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفًا كل الانصراف عن هذا العالم المادي ، مستغرقًا في التفكير في الله ، ولكن ، « لامانس » يؤكد أنه كان يكره الوحدة !!

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتي على آل محمد الشهر ، والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار ، وكثيرًا ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله عليه السلام يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فإن « لامانس » يصفه بأنه أكول ، وقد كثف جسمه بالملذات ، ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الإثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صومًا ، ولكن القسيس « لامانس » يثبت على عناده !!

ويقول الله تعالى :

﴿ إن ربَّك يعلمُ أنَّك تَقومُ أدْنىٰ من ثُلُثي الليل ونِصْفه وثُلُثه وطائفةٌ من الذين معك ﴾[1] .

وقد نقلت الأخبار : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، لطول وقوفه في الصلاة ، ومع ذلك يقول « لامانس » : كان محمد نؤومًا[2] .

ونستطيع أن نقول له :

إن مشركي قريش قد لجوا في عنادهم كل اللجاجة ، وكانوا يبحثون بعيون طُلعة عن أي مطعن أو مغمز ، فلو رأوا أن ما جاء في القرآن من وصف محمد صلى الله عليه وسلم ، بالقيام ليلاً ، لا يصدقه واقع الحال ، لكان لهم شأن ، ولنقل إلينا عن هذه المعارضة .

وقد ناقشه (ناصر الدين دينييه) بقوله :

---

(١) سورة المزمل : ٢٠ .

(٢) السابق نفسه : ١٣٠ ، ١٣٢ .

« وهو ـ أي لامانس ـ لا شك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقضي جزءًا كبيرًا من الليل في العبادة ، لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم » .

وإنه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفرادًا يعدون على الأصابع ، : إن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين ، الذين عرفهم التاريخ ، وإن عدالته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة النافذة ، وإدارته الدقيقة الساهرة ، كل ذلك يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم إلا في دهور دهيرة ، وإننا حقًا لا نكاد نجد من يشابهه في التاريخ ، اللهم إلا إذا كان الإسكندر الأكبر .

ومع ذلك ، فقد كان عمر في نظر القسيس (لامانس) جنديًا مسكينًا ، أدنى مرتبة من الوسط ، ولكنه في كراهيته البالغة للإسلام ، ينسى أو يتناسى هذا الوصف حينما يريد أن ينتقص ـ معاذ الله ـ من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وليس عمر وحده هو الذي نال منه قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم ـ كعاصفة هوجاء ـ كل أخيار المسلمين : الرسول ـ أبا بكر ، عمر ، عثمان ، عليًا ، فاطمة ، عائشة ، حفصة ، وغيرهم . . وغيرهم . .

أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام ، كأبي جهل ، وأبي لهب ، ألد أعداء النبي ، أما إذا ما تحدث عن المنافقين ، خونة الإسلام ، أما إذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين ، فإنه يشيد ما شاء له هواه ويمدح ما أمكنه المدح ، ويطري كلما أتيح له الإطراء ، ويلبسهم من الفضيلة ثوبًا لامعًا خلابًا »[1] .

أما المنافقون فهم أبطال الوطنية ، عند القسيس ، وإذا تساءلت : من هو هذا الدخيل الذي لم تنبته الجزيرة العربية ، والذي يقف أمامه « أبطال الوطنية القومية » فإنك لا تجد من القسيس إلا صمتا !

---

(١) نفسه ، ١٣٢ ـ ١٣٣ .

أكان محمد « فارسيًا » غازياً للجزيرة العربية ؟
أم كان «روميًا » يهاجمها ؟
أم هو عربي يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلاً أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال ؟ »[1] .

وأعجب نموذج ، وأبلغ صورة لمنهج العكس هذا عند « لامانس » أنه إذا أراد أن يؤيد دعواه في قضية من القضايا ، ثم بحث حتى أعياه البحث فلم يجد خبراً لا صحيحًا ولا سقيمًا يؤيد ما ادعّاه ، فإنه لا يتراجع ، وإنما يمضي في جرأة نادرة ـ على حد تعبير (دينييه) ـ ويستمر متشبثًا بدعواه ، ويقول : « إن هذا أمر عُني رجال الحديث بكتمانه »[2] هكذا إذا لم يجد الخبر ، فهو حقيقة ولكن تواطأ الرواة على كتمانه .

وليس هذا الفساد المنهجي (منهج العكس) قاصراً على (لامانس) وأضرابه من متعصبة المستشرقين ، بل إننا نلحظه عند كثيرين منهم ، ولكن بدرجات متفاوتة ، فمن ذلك مثلا ، ما نراه عند (ول . ديورانت) في كتابه « قصة الحضارة » حيث لا يعجبه أن المؤرخين في كل ما كتبوه « صوروا هارون الرشيد ـ أولا وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين . . وأنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين[3] ، وأنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة » أ . هـ .

---

(١) نفسه ، ١٣٤ .

(٢) نفسه ، ١٣٦ .

(٣) لعله من دقيق الملاحظة أن نقول : إن ديورانت غيّر عبارةَ المؤرخين في هذه الجملة فهم يقولون دائما « كان هارون الرشيد يحج عاما ويغزو عاما » فغيرها إلى « يحج كل عامين » وكأنه تعمد إسقاط الغزو (صورة الغازي) من صفات هارون الرشيد ، وأقول : أولا ـ لأنه لا يطيق شعوريا ولا نفسيا أن يخط بيمينه

فهو يرى ، أن هذه الصورة غير الصورة المعروفة ، عن هارون الرشيد ، حيث صوّرته قصة « ألف ليلة وليلة » في صورة الملك المرح ، ولكن هذا (المرح) أغضب المؤرخين ، فصوّروه في صورة الورع المتمسك بالدين . . . إلخ .

فكل المؤرخين في نظر (ديورانت) كاذبون مزيفون ، ساءهم مرح هارون الرشيد ، فاخترعوا له صورة (معكوسة) (عكس الواقع) .

وهكذا يفعل (منهج العكس) عند علماء الاستشراق وفي أبحاثهم[1] .

و ـ التشكيك في الدليل القاطع والتعامي عنه

فحينما يكون الدليل قائمًا على الرأي أو الحكم ، الذي لايوافق هوى المستشرق تجده يتعامى عنه ، ويتجاهله ، ويشكك فيه ، حتى لوكان صحيحًا بين الصحة ، كأن يكون حديثًا في الصحيحين ، بل لوكان قرآنًا كريمًا صريح الدلالة .

فمن ذلك مثلاً قول (مونتجومري وات) : « وكان يقال في الإسلام : إن

أنه كان غازيا لقومه ، وثانيا ـ حتى يحمي المواطن الأوربي الذي كتب له أصلا ، فلا يشعر بأنه كان يوما (يُغزى) من هؤلاء الذين يستعمرونهم ، وثالثا ـ حتى لا يشعر القارىء المسلم إذا قرأ كتابه أنه كان يومًا ما (غازيا) لهؤلاء السادة الذين يستعمرونه ، فيطمح إلى أن يعيد هذا التاريخ ، وإلا فخبرني بربك كيف غيّر العبارة الرشيقة (يغزو عاما ويحج عاما) وشطرها نصفين ، فباح بنصف ، وكتم النصف الآخر أبشع كتمان .

(١) ول ديورانت ـ قصة الحضارة : الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٩٠ ـ ٩١ .

المهر كان ملك المرأة . . . »[1] .

فانظر تعبيره بلفظ (يقال) فهي صيغة تشكيك في هذا الحكم ، يوحي بأنه غير مصدق أن يكون ذلك من شريعة الإسلام وأحكامه ، مع قراءته (قطعًا) للآية الكريمة في سورة النساء : ﴿ وآتُوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ (النساء : ٤) ولكنه يغض بصره عن هذه الآية الكريمة : (وهو قد قرأها قطعًا بدليل استشهاده بآيات من السورة نفسها) التي تأمر بغاية الوضوح ، والصراحة بإعطاء النساء مهورهن .

فمع ما استقر في أعماق ثقافته من أن الإسلام يظلم المرأة ويمتهنها لايقبل عقله أن يرى القرآن ينص على أن المهر حق المرأة .

ولذا يواصل التعامي عن أي دليل في هذا الحكم ، وينكره ، فيقول : « ولايذكر القرآن المهر إلا بصورة عارضة عند ذكر الطلاق »[2] .

وهو بذلك يشير إلى الآية الكريمة : ﴿ الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ ، وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٩) . وإلى قوله تعالى : ﴿ لاَّجُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٢٣٦) . وإلى الآية الكريمة أيضا : ﴿ وَإن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ، إلاّ أَن يَعْفُونَ ، أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَن تَعْفُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَتَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة البقرة : ٢٣٧) . وكذلك إلى الآية الكريمة : ﴿ وَإنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة : ٤٣٣ .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة ٤٣٣ .

قِنْطَارًا ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (سورة النساء : ٢٠) .

فهذه الآية الكريمة التي تتحدث عن حكم المهر ، وأحقية المرأة في المهر بالغًا ما بلغ ، ولوكان قنطارًا من الذهب ، وتحرم أشد التحريم أن يأخذ الرجل منه شيئا ، وتجعل أخذه بهتانًا وإثمًا مبينًا ، يسميها (م . وات) : « عرضا » تعاميًا عن الحكم المقرر الثابت الذي أكدته ، ومن أجل هذا تجده لايذكر هذه الآيات في كتابه ، ولايشير إلى أرقامها ، ولا إلى موضعها من القرآن الكريم ويكتفي بإشارة سريعة غاية في التعمية والتجهيل : « لايذكر القرآن المهر إلا عرضا » كذا . .

فما بال الآيتين اللتين ذكرتا المهر قصدًا لا عرضًا ، أعني قوله تعالى : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئًا مريئًا ﴾ (سورة النساء : ٤) وقوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن ﴾ (سورة النساء : ٢٤) . ؟؟

نجده يتعامى عن الآية الأولى تماما (رقم ٤) ولايعرض لها إطلاقًا ، وكأنما ذهب بصره عندما مر عليها ، أما الآية الثانية (رقم ٢٤) فقد وجد لنفسه مخرجا منها ، ووجد لنفسه حيلة معها ، ومن أجل ذلك عرض لها حيث قال : « ولاشك أن الأجور التي يجب دفعها للنساء (قرآن ٤ - ٢٨) تختلف عن ذلك (يعني المهر) »[1] .

وإذا تجاوزنا عن الخطأ في رقم الآية فالصحيح أنها رقم (٢٤) وليس (٢٨) كما ذكر (هذا إذا لم تقل إنه تعمد التضليل) .

أقول : إذا تجاوزنا عن ذلك ، فمن حقنا أن نسائله : لماذا رفض تفسير المهور بالأجور ، مع أن هذا هو الذي عليه القرطبي ، وابن كثيروالسيوطي ،

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم ، في المدينة : ٤٣٣ .

وغيرهم من المفسرين ، فسياق الآية بعد ذكر المحرمات من النساء ، ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهم فآتوهن أجورهن فريضة ولاجناح عليكم فيما تراضيتم بـه من بعد الفريضة ، إن الله كان عليمًا حكيمًا ﴾ (سورة النساء : ٢٤) هذا السياق يؤكـد أن المراد بـالأجور هـو المهـر ، حيث تتحـدث الآيـة عن الـزواج (الاستمتاع) بما (وراء ذلكم) أي بغير المحرمات من النساء . ولذلك قال القرطبي : قال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى : فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النسـاء بالنكـاح الصحيح « فـآتوهن أجـورهن » أي مهـورهن . . (جزء ٥ / ١٢٩) ، ولكنه تعلق بما روي أن الآية في نكاح المتعة التي كانت في صدر الإسلام ، ثم نسخت . ولعله لم يشأ أن يفصح عن هذا التفسير لما رآه واهيًا ، وإن كان القرطبي قد عزاه إلى الجمهور .

كما ورد ذكر المهر في آية أخرى، لم يشأ أن يراها (م . وات) مع أنها تالية للآية التي أشار إليها مباشرة، وهى قوله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان، فإذا أحصن فإن أتين بفاحشةٍ فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ (النساء : ٢٥) .

فهنا ذكر للأجور (أى المهور) قصداً، ولا عرضاً، ولكنه لم يشر إليها رغم أنها في آية تالية للآية التي استشهد بها ، ولكن لأنه لم يجد له حيلة مع هذه الآية لأن المراد هنا بالأجور المهـور، لم يقل قـائل بغـير ذلك، لأن قـوله تعـالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ يمنع أن يراد هنا نكاح المتعة، كما قاله البعض في الآية السابقة .

وأعتقد أنه قد بان الآن بأجلى بيان، أن الرجل (م . وات) يتجاهل الدليل ويهرب منه، وهو بين يديه، وأي دليل !! آيات القرآن العظيم !!

على حين لـو وجد في كتـاب (الأغاني) أو (الأحـاجي) أو (القصص) أو (الخرافات) أي كلام يؤيد دعواه، لاحتفى به كل الاحتفاء، وأقام منه صرحاً شامخاً يعتمد عليه ويستند إليه .

ونجد هذا التشكيك في الدليل القاطع عند مستشرق آخر، هو (ول . ديورانت) صاحب الموسوعة الضخمة قصة الحضارة[1] ومثال ذلك :

يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، « وقد أعانه نشاطه على أداء واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات، ونوبات غريبة . . إلخ »[2]

ولا يعنينا أن نناقش القبح والفحش الذي كتب به المؤلف ماكتبه عن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بأبي هو وأمي وبنفسي وبالناس أجمعين ـ فليس هذا مجال مناقشته، ولكن الذي يعنيني أن أضبط هذا المستشرق العلامة، متلبسا بخيانة المنهج . وذلك قوله : « وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم) فهذا التعبير بـ (ظن) يريد به أن ينفى صحة الخبر، ليبرىء اليهود بالتالي من جريمة محاولة قتله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسم، ومن قتل الصحابي الجليل الذي أكل معه .

---

(١) قامت على ترجمة هذا الكتاب الإدارة الثقافية بالجامعة العربية وصدر على نفقتها في أكثر من ثلاثين جزءا ، وقد نقد هذا التصرف من الجامعة العربية الأستاذ الجليل محمد محمد حسين رحمه الله ، وقال : « إن اختيار هذا الكتاب للترجمة جريمة دبرتها الصهيونية الهدامة المتخفية في زوايا اليونسكو . إلخ انظر (حصوننا مهددة من داخلها : ١٨٩ ـ ١٩٧ لترى نقدا موضوعيا علميا لهذا الكتاب .

(٢) الجزء الثاني من المجلد الرابع مسلسل رقم ١٣ ص ٤٦ سطر ٧ ـ ١٠ .

وهذا الخبر (خبر دس السم) موجود مشهور في مصادر السيرة النبوية المختلفة فقد أورده ابن هشام في سياق غزوة خيبر، وأورده ابنُ سعد في طبقاته، ورواه البخاري في غير موضع : ٥ / ١٧٦، ومسلم ٧ / ١٤ ـ ١٥ كلاهما من حديث أنس، وأحمد برقم ٢٨٨٥ من حديث ابن عباس وأبو داود : ١/١٤٦ والدارمي ١ / ٣٣ عن جابر . . . . (وفيه اعتراف اليهود بدس السم وعفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الجرم الفظيع مع موت الصحابي الجليل البراء بن معرور بهذا السم) .

ومع ثبوت هذا الخبر ووفرة مصادره تأبى (الأمانة العلمية) و(الحيدة الأكاديمية) و(منهج البحث) على هذا المستشرق العتيد إلا أن يزيف ويحرف فينكر الخبر ، وينسب الحادثة في إيجاز بارع إلى مجرد ظن ووهم .

ز ـ التحريف والتزييف والادعاء

لقد حاولت أن أجد اسمًا لهذه الآفة المنهجية إلى سنعرضها فلم أجد ، غير هذه الصفات ، فحينما يحذف الباحث كلمة من العبارة محل الاستشهاد ، أو يزيد كلمة أو يغير كلمة ، أو ينفي كاذبًا وجود نص من النصوص التي استدل بها غيره ، حينما يفعل ذلك بماذا نصفه ؟ أو بماذا نسمي هذا الخلل أو بالأحرى الفساد المنهجي ؟ أرجو أن نجد له اسمًا يعبر عن حقيقته . وماعليّ الآن إلا أن أضع النماذج لهذه الشناعات :

يحاول بعض المستشرقين إنكار عالمية الرسالة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا للناس كافة ، وفي سبيل ذلك يجمعون من الأدلة مايركبون في سبيله كل صعب وذلول ، ولكن الذي يتصل بموضوعنا هنا ، أنهم ينكرون

رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ورسله إلى ملوك العرب والعجم ، وفي سبيل هذا الإنكار يتصدى (كايتاني) لخبر الرسول والرسائل في سيرة ابن هشام ، فيشكك فيه ، مدعيًا أن ابن هشام لم يورد لابن اسحاق مصدره الرئيسي خبرًا عن الرسائل ، واعتبر كايتاني ذلك سكوتًا من ابن اسحاق وبالتالي إضعافًا للخبر[1] .

والسيرة النبوية لابن هشام ، مطبوعة ، وبأيدي الناس ، وفي وسعهم أن ينظروا فيها ليجدوا أن ابن هشام أورد خبر الرسائل بروايتين إحداهما لابن هشام بسنده عن أبي بك الهذلي ، والثانية لابن اسحاق بسنده عن يزيد بن أبي حبيب المصري[2] .

وما أظن إنسانًا عاقلًا يفعل هذا الذي فعله (كايتاني) وأمثاله ، لأن الذي يخفي شيئًا بهذا الوضوح ، لايمكن أن يعد بين العقلاء .

ولكن عذرهم أنهم يكتبون للمثقف الأوروبي - كما أشرنا آنفا - وهو غير مستطيع أن يتتبع هذه المراجع والمصادر ، بل هو غير مريد أيضًا ، لأن هؤلاء موضع ثقته وماكانوا يعلمون أن ناسًا منا سيقرأون لهم ، ويطلعون على هذه الخيانات المنهجية .

ونعود إلى (ول . ديورانت) لنرى عنده مثالاً آخر ، في موسوعته (قصة الحضارة) التي أشرنا إليها آنفًا ، يقول وهو يتحدث عن الثراء الذي أصابه المسلمون بسبب الفتوح : « وكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد وعشرة آلاف عبد . . » أ . هـ بنصه .

---

(١) كايتاني - حوليات الإسلام : ١ / ٢٧٥ - نقلا عن عز الدين إبراهيم - الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم - بحث منشور ضمن البحوث والدراسات التي قدمت للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسُنة ، إدارة الشئون الدينية بدولة قطر - الجزء السادس : ٢٦٤ .

(٢) راجع ابن هشام - السيرة النبوية بتحقيق السقا : ٤ / ٢٥٤ - ٢٥٥ وبتحقيق طه عبد الرؤوف سعد : ٤ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

وهذا الخبر بهذه الصورة وبهذا الإيجاز يجمع ألوانًا وأفانين من التحريف ، ففيه زيادة ، وفيه نقص ، وفيه تغيير وتبديل ، وبيان ذلك :

إن الخبر ورد في المصادر المعروفة والمشهورة هكذا : « كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه خراجهم كل يوم ، فما يُدخل إلى بيته منها درهمًا واحدًا ، يتصدق بذلك جميعه » .

هكذا ورد الخبر في :

(١) الإصابة لابن حجر العسقلاني : ١/٥٤٦

(٢) أسد الغابة لابن الأثير : ٢/١٩٨

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٧/٢٥١

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي : ١/٣٤٦

(٥) الاستيعاب لابن عبد البر (بهامش الإصابة) ١/٥٨٣

وبعض هذه المراجع من منشورات المستشرقين ، أعني أن هذا الخبر بهذه الصبغة كان متاحًا له وبين يديه ، (وهم يزعمون ، ويزعم تلاميذهم أنهم يستقصون المراجع ولايخطون حرفًا إلا بعد جمع كل مايتصل بموضوعهم) ولكنه كماترى إرتكب التحريفات الثلاثة الآتية :

١ ـ زيادة ألف جواد من عنده ، فقد أقحمها في الخبر ، ولا وجود لها فيه أصلا .

٢ ـ نقص الجزء الأخير من الخبر عن تصدق الزبير بخراج هؤلاء المماليك .

٣ ـ زيادة الألف مملوك إلى عشرة آلاف .

وهكذا تكون (الأمانة العلمية) و(النزاهة) و(الحيدة) و(التجرد) و(المنهج) إلى آخر هذا الركام من الأحجار التي يلقمونها لمن يريد أن ينظر في عمل المستشرقين .

وهاك نموذج آخر للتحريف وخيانة المنهج ، وهو ما قاله هذا المستشرق عن هارون الرشيد ، ذلك الخليفة العظيم ، وعلاقته بالبرامكة ، قال : « وكان هارون يحب جعفر حبا أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال : إن الخليفة أمر بأن تُصنع له جبة ذات طوقين ، يلبسها هو وجعفر معا ، فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية »[1] كذا . .

انظر : مؤرخ الحضارة ، عملاق الفكر ، وربيب الأكاديمية ، وسادن العلم ، وأستاذ البحث والمنهج ، ينكر الحدث الثابت والخبر المتفق عليه ، الذي تردد في كل الكتب تقريبا ، « عن دس اليهود السم للرسول صلى الله عليه وسلم » . ويُضيف ويغير في خبر ثروة الزبير رضي الله عنه ، ويأتي هنا بخبر (لقيط) لا يُدرىٰ له أصل فيحتفي به أيما احتفاء ، بل يبني عليه من عنده ، فيتخذ منه مناسبة ليطعن بغداد دار السلام ، عاصمة الدنيا كلها في ذلك الوقت ، فيقول : « ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية » ، هكذا يقذف المجتمع كلّه بهذه الفرية ، ولنا على هذا الكلام ملاحظتان .

(الملاحظة الاولى) : أن هذا الخبر على فرض صحته : كان الأولى به أن يعف عن ذكره ، فلا (يلوث) به كتابه ، ولا يؤذي به حياء قارئه ، فهذا شأن العلماء والباحثين ، لاسيما وأن الخبر في سياقه مقحم لا قيمة له ، فإثبات قوة الصلة بين هارون الرشيد والبرامكة لا تحتاج إلى مثل هذا الفحش ، الذي يعف

---

(١) الجزء الثانى من المجلد الرابع (مسلسل رقم ١٣) ص ٩٣ سطر ٥ ـ ٨ ولا يعفي « ديورانت » أنه عزا هذا الكلام إلى « مرجليوت » في كتابه (محمد ومطلع الإسلام) بل إن هذا يضاعف الجرم (أفعى ترضع سما) ويشهد بعراقة الإفساد ، وتمكن الحقد من نفوس القوم ، وإحكام الكيد وسوء المكر ، وإن الإنسان ليعجب أي علاقة لهذا الكلام عن هارون الرشيد بكتاب عن (محمد ومطلع الإسلام) ؟؟ أية منهجية هذه ؟؟

عنه عامة الناس ، بله كبار العلماء ، (آه متى يعود لأمتنا مكانها حتى تقيم حدود الله ، وتجلد هؤلاء القذفة) .

(الملاحظة الثانية) : أن هؤلاء المستشرقين دائمًا يدعون إلى العقل ، وتحكيم العقل في الخبر مهما كانت صحة سنده ، والسؤال للمستشرق العملاق ، هل يقبل عقل عاقل (أيّ عاقل) بله عقل متحضر ، بله عقل (مؤلف عالمي) هل يقبل العقل أن يمشي رجلان في ثوب واحد ؟؟ وكيف ؟ وبأي سعة يكون هذا الثوب ؟ وأيهما يمشي أولا ؟ وأيهما يمشي ثانيا ؟ أم كان هناك إيقاع موسيقي يضبط حركتهما ؟؟

وإذا تركنا هذا الإمكان (العملي) فهل يقبل العقل أن حاكمًا في مثل منزلة هارون الرشيد كان فارغًا لهذا العبث ، بل لهذا الفساد ؟ وهل يعقل أن من يصل إلى هذا الحد من (السقوط) يمكن أن يكون صاحب هذا التاريخ الذي زحم الدنيا ، من الغزوات والانتصارات والسفارات ، والبناء والتعمير ، وقيادة (الدنيا كلها) في طريق الحضارة والنور ؟ هذه الخطوات الفساح التي تمت في عهد الرشيد ، هل يقبل عقل عاقل أن هارون الرشيد الذي كان يقود الجيوش بنفسه ، ويقضي الشهور تلو الشهور في ملابس الميدان ، هذا الذي أذل أباطرة الروم ، ودفع عن ثغور المسلمين دسائسهم ، ومؤامراتهم ، حتى مات مجاهدًا ودفن هناك في (طوس) على أطراف دولته ، بعيدا عن عاصمته (وقصره) مسيرة أيام ، هل يعقل عاقل أن هذا المجاهد يصل إلى هذا المنحدر من السقوط ؟؟ إلا في عقل هؤلاء المستشرقين .

بل إن جعفر البرمكي هذا ، كان قائدا محنكا ، ولاشك أن مؤرخ الحضارة قرأ عن أعماله الحربية العظيمة ، وأن هارون الرشيد كان يرمي به في أخطر المآزق ويلجأ إليه في أشق المضايق ، فطالما قمع الفتنة ، وردع العدوان ، وسد الثغور ، وحمى الحصون ، وجال في أرض العدو وصال .

أفمثل هذين العظيمين الطاهرين المجاهدين ، يكون فارغاً لما يرمز إليه

بهمزه ولمزه ، ذلك المؤلف العالمي (الهمزة واللمزة)[1] .

ح ـ إصدار أحكام قاطعة بغير دليل أصلا

وهم في هذه الحالة يظهرون مهارة فائقة ، حيث يُصدرون الحكم بصورة قاطعة لاتردد فيها ولا احتمال ، وفي جملة موجزة ، بدون حشو أو تطويل ، أو ترادف يوحون بذلك للقارىء أن المسألة مفروغ منها ، وأنها يقين ، وبديهة من البدهيات .

من ذلك ماذكره (مونتجومري . وات) وهو يتحدث عن مجتمع المدينة ، ونظام الزواج والصداق ، حيث قال : « وكان يقال في الإسلام : إن المهر كان ملك المرأة ولكن لم يطبق ذلك »[2] أ . هـ .

هكذا يطلق الحكم في جملة واحدة « ولكن لم يُطبق ذلك » ويمضي مطمئنًا ، وكأنه لم يصنع شيئًا ، لم يتهم مجتمعًا بأكمله بأنه لم يطبق شريعة الله ، التي كان يعيش بها ، ولها ، ويقاتل في سبيلها ، ويجاهد من أجلها .

والذي يعنينا من هذا هو أن نرى كيف يقطع هذا (الباحث) (المنهجي) بهذا الحكم ، بدون دليل ، فأي بحث هذا ؟ وأي منهج هذا ؟

وقد وقفت أمام هذه الآفة المنهجية أيضًا ، فلم أجد لها أصدق من هذا الوسم ـ في تقديري ـ فهي أخطر من أن تندرج تحت مايسمى (بالنفي الكيفي)

---

(١) نحن نعرف ويعرف (ول ديورانت) أكثر منا مَن مِن قادة الفكر والرأي في بلاده يصدق عليهم يقينا ما حاول أن يرمي به هارون الرشيد وجعفر ، بل حاول أن يرمي به المجتمع المسلم في بغداد كلها ؟ نحن نعرف ، ولكن نعف ونطهر قلمنا وكتابنا أن نذكر ، ولا نهمز ولا نلمز .

(٢) محمد في المدينة : ٤٣٣ .

أو (النفي الاعتباطي)[1] ، فهي خيانة مكشوفة لمنهج البحث ، بل هذا في الواقع لايسمى بحثًا ولايسمى علمًا ولامنهجًا .

ويلاحظ كما أشرنا ـ آنفًا ـ أنه ألقىٰ هذا الحكم في جملة واحدة من كلمتين ألحقها بقضية أخرى ، زيف فيها الأدلة على وجود المهر وتشريعه أصلا ، وتجاهل أيتين من آيات سورة النساء ، أمام عينية وتعسف في توجيه وتفسير آيات أخر ، كما بيناه في موضوعه .

ط ـ الاختلاق والتمويه

وهذه آفة الآفات ، أن يشير الباحث إلى مصادر استقى منها ، ومراجع رجع إليها ، ويعينها بالجزء والصفحة ، مختلقًا ذلك اختلاقًا ، بدون أن يكون لهذا الادعاء أدنى أصل ، ومع أن هذا يُنظر إليه على أنه أبشع من كل ماسبقه مما أشرنا إليه من آفات ، ألا أننا نراه مع قبحه وفجاجته ـ أقل خطرًا من حيث تأثيره الفكري ، فإنه سلاح مكشوف ، ومكر مفضوح ، وبوسع كل قارىء مثقف أن يتناول المرجع ، أو المصدر الذي يشير إليه ، فينكشف له خبؤه ويفتضح عواره ، وتسقط قيمته ، ولكن الخطر يكمن في الآفات الأخرى ، التي يحكمون إخفاءها ، ولا يدركها ويكشف سرها إلا من كان على علم بأساليب هؤلاء ، وتمويهاتهم .

ولقد رأينا من المستشرقين من يأتي بالنص من المصدر أو المرجع ، فيضيف

---

(١) انظر ما كتبه البحاثة الفاضل الأخ الدكتور عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية ضمن كتاب (مناهج المستشرقين) جـ ١ / ١٤٨ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ بالتعاون مع مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

إليه حرفًا ، أو يحذف منه حرفًا ، أو يبدل منه لفظًا ، فإذا المعنى قد استحال إلى شيء آخر ، وأصبح ناطقًا بما يريد أن يُنطقه به المستشرق الباحث[1] أما الاختلاق والادعاء والافتراء فتلك آفة الآفات .

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي وهو يترجم للمستشرق الفرنسي (لامانس) : « وأبشع مافعله لامانس ، خصوصًا في كتابه (فاطمة وبنات محمد ، هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها ، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها ، فوجدت أنه إما أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقًا في هذه الكتب ، أو يفهم النص فهمًا ملتويًا ، خبيثًا ، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد ، يدل على فساد الذهن ، وخبث النية ، ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارىء على إشاراته إلى مراجع ، فإن معظمها تمويه ، وكذب وتعسف في فهم النصوص »[2] .

وتهمنا هنا شهادة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، فالرجل من أبناء الثقافة الغربية ورواداها وكان على اتصال بكثير من المستشرقين وحسن الظن بهم ، فأن ينكشف له هذا الخبث حتى يفزعه ويحذر منه فهذا وحده أبلغ دليل .

وقد عقب الدكتور عبد الرحمن بدوي قائلا : « ولا أعرف باحثًا من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية » .

فإن كان يقصد أن هذه الصفات اختص بها (لامانس) فنقول له : لا . وأما إن كان يقصد أنهم جميعا على هذه الصفات ، إلا أن (لامانس) فاقهم ، وبلغ

---

(١) راجع على سبيل المثال ، مع ما قدمناه من قبل في هذا البحث تحريفات جولدتسيهر في أخبار الإمام الزهري وغيره من أئمة السُنة وذلك في الكتاب القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامى) للمرحوم الدكتور / مصطفى السباعي ص ١٨٧ - ٢٣٥ .

(٢) د . عبد الرحمن بدوي - معجم المستشرقين : ٣٤٨ .

حدًا لم يبلغه غيره من المحدثين ، فنقول له : نعم . وهذه هي الحقيقة ، أعني أنهم كلهم (لامانس) بل في الواقع أخطر من (لامانس) لأن (لامانس) غلب حقدُه كيَاستَه ، وبفعله هذا ، كشف عن نفسه وافتضح أمره ، فاجتنبت سمومه ، حيث جاءت لازعة الطعم فاقعة اللون ، فائحة الرائحة ، فقدت تأثيرها .

وهو بهذا خالف (استراتيجية) قبيله وقومه ، فهم يعلمون أن حرب الكلمة والفكرة ليست كحرب السلاح والدم ، في الثانية كلما تكاثفت الضربات ، وتوالت الطعنات وتقدمت الجيوش ، تحرق وتدمر ، كلما كان النصر أسرع وأقرب .

على حين في حرب الكلمة والفكر (كلما كانت الضربة) أخف وأرق وألطف ، وكلما تباعدت الضربات ، وكلما كانت الطعنات مغلفة بغلافٍ ناعم ، بالغ النعومة ، ومقنّعة بقناع كاف ومتلفعة بطيلسان (البحث) ومزدانة بشارة (الأكاديمية)، كلما كان كذلك، كان أوقع وأوجع، وكان الأثر أخطر وأعمق .

وقد عبر عن هذه الاستراتيجية العلامة أبو الحسن الندوي ـ مد الله في عمره ـ قائلا : « . . إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيبًا واحدًا ، ويجودون لتمكينه في النفوس ، بذكر عشرة محاسن ، ليست لها أهمية كبيرة ، وذلك كي يقف القارىء خاشعًا أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن .

وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من السم ، ويحترسون في ذلك ، فلا يزيدون على النسبة المعينة لديهم ، حتى لا يستوحش القارىء ، ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف .

إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون بالعداء ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل

متوسط في عقليته أن يخرج منها ، أو ينتهي من قراءتها ، دون الخضوع لها[1] .

ومن هنا نجد هذه الآفة (التمويه والخداع) عند مستشرقين آخرين غير (لامانس) ولكن (بمقدار) ، ومن أجل هذا لم يفتضح أمرهم ولم ينكشف سترهم ، ولم يشع عنهم ذلك .

ومثاله ما رأيناه عند (فان فلوتن) وأشرنا إليه من قبل ، من إحالته إلى (الطبري) وإلى (البلاذري) ولم نجد ما أحال إليه .

ومن ذلك أيضا :

ما نجده عند (مونتجومري وات) حينما يتحدث عن نظام الزواج في الإسلام ، فيقول فيما قال : « ونعلم من الأخبار أن محمدًا دافع عن (الشغار) وهو أن يتبادل رجلان ، أو جماعتان من الرجال بدون مهر بناتهم وأخواتهم من أجل الزواج »[2] ثم يشير في الهامش مسندًا ذلك إلى البخاري ـ كتاب النكاح ـ مما يوحي بأنه اعتمد في تقرير هذا الحكم ـ دفاع محمد صلى الله عليه وسلم عن الشغار ـ إلى البخاري ، موهمًا القارىء أنه رجع إلى البخاري واستند في ذلك إليه .

والطالب الشادي والمسلم العادي سيدرك لأول وهلة كذب (مونتجومري وات) في هذا الكلام ، فالجميع يعرفون تحريم نكاح الشغار شرعًا .

وبرجوعنا إلى البخاري (كتاب النكاح) ورقم الباب الذي عينه (٦٧) ، لم نجد شيئًا عن (الشغار) وإنما هذا الباب من أبواب كتاب النكاح بعنوان (باب الوليمة حق) وفيه حديث واحد ، عن وليمة عرس النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها .

---

(١) العلامة أبو الحسن الندوي ـ الإسلام والمستشرقون ١٩ ، ٢٠ .

(٢) محمد في المدينة : ٤٣٣ .

أما الشغار فهو الباب رقم ٢٨ من أبواب كتاب النكاح في البخاري وليس رقم ٦٧ كما زعم (وات) .

وإذا تجاوزنا هذا التضليل ، وأحسنا الظن ، واعتبرناه خطأً مطبعيا ، أو سبق قلم ، فكيف نتصرف في الموضوع ؟؟ أعني كيف نفسر استدلاله بالبخاري على ما ادعاه من « أن محمدًا صلى الله عليه وسلم » دافع عن الشغار « مع أن الذي في باب الشغار بالبخاري حديث واحد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ونصه : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشغار . والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق » انتهى بنصه .

ومن العجيب أن يرجع (وات) إلى معجم (لين) ويحيلنا إليه ، لتفسير (شغار) مع أن تفسيره وارد في البخاري . وهذه أيضا من عجائب المنهج ، أن يرجع في تفسير اللفظ العربي إلى معجم (لين) المستشرق الأعجمي ، مع أن أمامه تفسير ابن عمر ، وأعتقد أن أوليات المنهج وأبجدياته تفرض عليه أن يعتمد تفسير ابن عمر ، لا تفسير (لين) . . نعم ، لا مانع من أن يرجع إلى معجم (لين) لكن عندما لا يكون بين عينيه المعنى الأصلي في لغته الأم ، ناهيك بوروده عمن تؤخذ منه اللغة ، ويؤخذ منه الفقه ، مثل ابن عمر ، فما بالك إذا أخذنا بقول من رفع هذا التفسير إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولكن المنهجية المدعاة ، ظن أنه يدعمها برجوعه إلى معجم لغوي بجانب البخاري ، ولله في خلقه شؤون .

ويقيني أن المستشرق حينما يفعل ذلك ، إنما يعتقد أن من يقرأ له من المثقفين الأوروبيين لن يفكر في الرجوع إلى المصدر ، ولا هو بقادر أن يراجعه إذا أراد ، لأنه عادة ليس من القارئين وبالعربية ، القادرين على مراجعة مصادرها وأمهات كتبها .

وهو أيضا واثق ـ من أن (الأساتذة الكبار) من تلاميذهم (المدبلجين) الذين

ألقوا إليهم مقاليدهم ، لن يرد بخاطرهم أن يراجعوا عمل (سادتهم) بل هو على يقين من أنهم أعجز من أن يرجعوا إلى المصادر العربية الأصيلة ، وحسبهم أن المستشرقين (مشكورين) قاموا عنهم بهذا الدور وكفوهم مؤنته ، وتحملوا عنهم العناء .

● خـاتمـة ●

ولنا أن نقول : إذا كان هذا البحث قد انتهى إلى أن أعمال المستشرقين لا يمكن أن توصف بأنها أبحاث ، ولا بأنها علمية ، وإذا كنا قد آثرنا أن نضع القلم الآن فمازال أمامنا مجال للقول فسيح ، فيما يتعلق بالاستشراق والمستشرقين لنجيب على كثير من الأسئلة مثل :

ـ هل هناك مستشرقون منصفون ـ غير من هداهم الله إلى الإسلام ؟

ـ هل يلام المستشرقون على ما قاموا به من أعمال ، وما بذلوه من جهود في سبيل هذه (الدراسات) و (الأبحاث) التي قدرت عدداً بستين ألف ؟

ـ ثم هل للمستشرقين فضل على تراثنا ، بما قاموا به من حفظ وصيانة ما استولوا عليه من مخطوطات ، ثم ما بذلوه من جهد في فهرسته وتحقيقه ونشره ؟

هذه ـ وأمثالها ـ مازالت مجالا فسيحا للقول والدرس ، ومع أننا آثرنا أن نضع القلم الآن ، فليس هناك ما يمنع من أن نشير إشارة سريعة إلى أننا على رأي العلامة أحمد فارس الشدياق ، في أنه ليس في هؤلاء المستشرقين من يصح أن يسمى عالما ، أو باحثًا ، بله منصفًا ، فقد قال في كتابه (ذيل الفارياق) :

إن هؤلاء الأساتيذ (المستشرقين) لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، وتوثبوا فيه توثبًا ، ومن تخرج فيه بشيء ، فإنما تخرج على القسس ، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام ، أو أدخل أضغاث أحلام في

رأسه وتوهم أنه يعرف شيئا وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئًا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمن فرجح منه المرجوح ، وفضل المفضول »[1] .

ثم نتبعه بقول شيخنا الجليل محمود شاكر ـ مد الله في عمره ـ « والاستشراق لا يذم لأنه فعل كل ذلك ، لأنه بلا شك قد أدى ما عليه لبني جلدته أحسن أداء وأتمه ، ونصر أهل دينه ، وأخلص لهم ، كل الإخلاص ، وكافح في سبيل هدفه بكل سلاح ، أجاد صقله ، وتقويمه .

أما الذي هو حقيق بالذم والمعابة ، فالعربي أو المسلم العاقل الذي يظن نفسه عاقلاً ، والبصير منا الذي يظن نفسه بصيرًا ، ثم لا يكاد عقله يدرك شيئًا هو أبين بيانًا من البدائه المُسَلَّمة ، ولا يكاد بصره يرى ما هو أظهر ظهورًا من الشمس الساطعة»[2] .

ثم نضيف أيضا قول أستاذنا الجليل محمود شاكر ، للمخدوعين الذين يسرفون على أنفسهم وعلى أمتهم بتمجيد عمل المستشرقين في مجال التراث ، حيث قال :

« لا تصدق من يقول لك : « إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها ، وعلومها ، لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهمٌ باطل .

كانوا لا يطبعون قط من أي كتاب نشروه أكثر من خمسمائة نسخة ، ولم تزل

---

(١) عن الدكتور / مصطفى السباعي ، الاستشراق والمستشرقون : ١٣ .

(٢) محمود محمد شاكر ـ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٩٢ ، ٩٣ .

هذه سنتهم إلى يومنا هذا ـ توزع على مراكز الاستشراق في أوروبة وأمريكا ، وما فضل بعد ذلك ـ وهو قليل جدا ـ كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان ، والعشرة على الأكثر ، لم يسعَوْا قط إلى تسويقها ، بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يُسوقون بضائعهم وتجارتهم وسائر ما ينتجون بين هذه الملايين طلبًا لربح المال »[1] .

وأضيف إلى ذلك : إن عنايتهم بالتراث كانت ـ ومازالت ـ وستظل من باب (أعرف عدوك) فهذه الكتب (التراثية) هي الخرائط ، والصور ، لعقولنا وعواطفنا ، ومشاعرنا ، واتجاهاتنا ، واهتماماتنا ، وحبنا وبغضنا وغضبنا ورضانا ، فهي المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ، ثقافيًا ، واجتماعيًا ، وفكريًا وعلميًا ، بعدما حطمونا عسكريًا، وحربيًا ، وسياسيًا .

ومن أعجب العجب ، أن تجد أمة ـ مثل أمتنا ـ تشكر وتمجد ، وتعظم أمر سارقي وثائقها ، لمجرد أنهم احتفظوا بها ، أو قدموا إليها صورة منها ، وعهدي بالدول الواعية ، أنها تفضل حرق ، وثائقها من أن تقع في يد أعدائها .

ولا ننكر أننا استفدنا من أعمال المستشرقين في مجال التراث (التحقيق والنشر ، والفهرسة) . فذلك أمر واضح للعيان لا ينكره إلا مكابر .

ولكن هذه الاستفادة عرضية ، تبعية ، تشبه تمامًا استفادة أهل الهند وأهل مصر الآن ، من المنشآت التي أقامها المستعمرون ، فقد شقوا في الهند الطرق وأنشأوا السكك الحديدية ، لنهب خامات الهند وثرواتها ، وأقاموا في مصر القناطر ، والسدود ، وأصلحوا الترع ، والقنوات ، من أجل أن تزود مصانعم في مانشستر ، ولانكشير بالقطن المصري ، فهل يقتضي ذلك أن الهندي إذا ركب قطار السكة الحديد ، ذكر الاستعمار وشكره وأن المصري إذا

---

(١) السابق نفسه : ٨٢ .

استقى من الترع والقنوات ، سبح بحمد (كرومر) ومجد عمله ، والاستعمار الذي كان يمثله ؟؟ إن هذا لعمري عجيب غريب !!

ولكنه الإفساد الثقافي ، والتدمير الفكري الذي تعرضت له أمتنا ، أعانها الله على أمرها ، وألهمها رشدها ، وأخذ بيدها ، إنه وحده المستعان ، وعليه التكلان ، وإن نصره لقريب . . هو نعم المولى ونعم النصير .

المصـــادر والمراجـــع

* أحمد بهاء الدين :

١ ــ يوميات ـ الأهرام ـ ١٥/٥/١٩٨٧ م .

● باول شميتز :

٢ ــ الإسلام قوة الغد العالمية (ترجمة الدكتور/ محمد عبد الغني شامة) مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ بدون تاريخ .

● ثروت أباظة :

٣ ــ خطاب وإجابة ـ مقال بجريدة الأهرام ـ ١٢/٤/١٩٨٧ م .

● جاك بيرك :

٤ ــ محاضرة بعنوان (التواصل بين الحضارات) ، ألقيت بالدوحة ، ضمن برنامج نادي الجسرة الثقافي .

● ابن جرير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير :

٥ ــ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٤ م .

● أبو الحسن الندوي (العلامة) :

٦ ــ الإسلام والمستشرقون ـ ندوة العلماء لكنو ـ الهند ـ ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .

● خير الدين الزركلي :

٧ ــ الأعلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٩ م .

● دونالد مالكولم :

٨ ــ جامعة القاهرة والمستشرقون (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم) .

بحث منشور ، بمجلة الثقافة العالمية ـ عدد ٣٨ ص ١٨ و١٩ تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .

● روجيه جارودي :

٩ ــ مبشرات الإسلام ـ عن مجلة الأمة عدد ٢٤ ص ٢٣ ، عرض عبد القادر سيلا .

● الزمخشري : جار الله أبو القاسم . محمود بن عمر .

١٠ ــ أساس البلاغة دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

● سلامة موسى :

١١ ــ حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ، دار المستقبل ـ القاهرة ١٩٧٨ م .

● د . عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء :

١٢ ــ تراثنا في الشرق والغرب ، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ألقيت على الدارسين بمركز تحقيق التراث القومي ونشره ، بوزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

● د . عبد الحليم محمود ، الإمام الأكبر :

١٣ ــ أوروبا والإسلام ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ م .

● د . عبد الرحمن بدوي :

١٤ ــ موسوعة المستشرقين ـ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ م .

● د . عبد العظيم الديب :

١٥ ــ المستشرقون والتراث ، دار الوفاء بالمنصورة ، مصر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

● أبو القاسم الزهراوي أول طبيب جراح في العالم ، دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود :

١٧ ــ الجهاد المشروع في الإسلام ـ رئاسة المحاكم الشرعية ـ الدوحة ـ بدون تاريخ .

● عز الدين إبراهيم :

١٨ ــ الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، بحث منشور ضمن البحوث والدراسات التي قدمت للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ـ إدارة الشئون الدينية ـ دولة قطر ـ ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

● دكتور/ علي سامي النشار :

١٩ ــ مناهج البحث عند مفكري الإسلام ـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ م (طبعة ثانية) .

● عماد الدين خليل : دكتور .

٢٠ ــ في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

● عماد الدين خليل : دكتور .

٢١ ــ المستشرقون والسيرة النبوية ضمن كتاب مناهج المستشرقين : ١١٣/١ ، نشر مكتب التربية العربية لدول الخليج بالاشتراك مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الرياض ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

● فان فلوتن :

٢٢ ــ الدولة الأموية والمعارضة (مدخل إلى كتاب السيطرة العربية) ترجمة إبراهيم بيضون ـ دار الحداثة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

● مالك بن نبي :

٢٣ ــ تأملات ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

● القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد :

٢٤ ــ تفسير القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٥ م .

● محمد أسد :

٢٥ ــ الإسلام على مفترق الطرق ، (ترجمة د . عمر فروخ) دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٧ م .

● د . محمد البهي :

٢٦ ــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م .

٢٧ ــ مقدمة كتاب الإسلام قوة الغد العالمية لبول شميتز ، مكتبة وهبة القاهرة .

● د . محمد عبد العليم مرسي :

٢٨ ــ مقدمة كتاب التربية في اليابان ـ من ترجمته ، مكتب التربية العربية لدول الخليج ـ الرياض ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م .

● محمد فتح الله الزيادي :

● محمد قطب الأستاذ . المفكر الإسلامي المعروف :

٢٩ ــ مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ـ القاهرة ـ بيروت ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

● د . محمود، قاسم رحمه الله : العميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

٣٠ ــ الإمام عبد الحميد بن باديس ـ الزعيم الروحي لحرب التحرير ، الجزائرية دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ م .

● محمود محمد شاكر أستاذنا الجليل :

٣١ ــ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ـ سلسلة كتاب الهلال رقم ٤٤٢ صفر ١٤٠٨ هـ ـ اكتوبر ١٩٨٧ م .

● لمحة من فساد حياتنا الأدبية ـ أنظر كتابه (المتنبي) مطبعة المدني ـ القاهرة ـ

١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م .

● د . محمود محمد الطناحي :

٣٣ ــ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

● د . مصطفى السباعي رحمه الله :

٣٤ ــ الاستشراق والمستشرقون ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

● مونتجومري وات (مستشرق معاصر) :

٣٥ ــ محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة .

٣٦ ــ محمد (صلى الله عليه وسلم) في المدينة ، كلاهما تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ـ بدون تاريخ .

● نجيب العقيقي :

٣٧ ــ الاستشراق والمستشرقون ، دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

● ابن هشام :

٣٨ ــ السيرة النبوية (بتحقيق مصطفى السقا وآخرين) نشر مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .

٣٩ ــ السيرة النبوية (بتحقيق طه عبد الرءوف سعد) مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ م .

● ول . ديورانت :

٤٠ ــ قصة الحضارة (ترجمة محمد بدران) ، جامعة الدول العربية ـ مصر .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم الأستاذ/ عمر عبيد حسنه	٧
المقدمة	٣١
المنهج في كتابات الغربيين	٣٥
إلى المستغربين	٣٦
أهداف المستشرقين	٣٨
حول تطور الدراسات الاستشراقية	٤٤
لمن يكتب المستشرقون ؟	٤٧
المستشرقون لا يكتبون لنا	٥١
المستشرقون والتاريخ	٥٤
أهمية التاريخ الإسلامي	٥٦
اتجاه المستشرقين للتاريخ	٥٨
الخضوع للأهواء	٧٠
عجز المستشرق عن تمثل الثقافة واللغة	٧٢
السيطرة العربية	٧٥
التعسف في التفسير والاستنتاج	٧٨
هل غدر قتيبة ؟	٩٦
لا غدر	٩٧
التفسير بالإسقاط	٩٩
منهج العكس	١٠٣
التشكيك في الدليل القاطع والتعامي عنه	١٠٩
التحريف والتزييف والادعاء	١١٤
إصدار أحكام قاطعة بغير دليل أصلاً	١١٩
الاختلاق والتمويه	١٢٠
خاتمة	١٢٥
المصادر والمراجع	١٢٩
الفهرس	١٣٤

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	عنوانه
قطر	☐ دار الثقافة	ص . ب ٣٢٣ الدوحة
الإمارات	☐ دار المسيرة للطباعة والنشر والتوزيع	ص.ب ٦٦٧٥ ابوظبي
»	☐ مكتبة دار الأمان	ص . ب ٤٦٩٥ » »
»	☐ المكتبة الحديثة	ص . ب ١٥٥٤٠ العين
»	☐ مكتبة دبي للتوزيع	ص . ب ١٥٢٦ دبي
البحرين	☐ مكتبة الآداب	ص . ب ٢٨٧ مدينة عيسى
السعودية	☐ مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان	ص . ب ١٤٠٥ الرياض
		ص . ب ٨٠٧٠ جدة
عمان	☐ مكتبة دار الثقافة الإسلامية	ص . ب ١٨٦٨٢ ظفار - صلالة - سلطنة عمان
الكويت	☐ دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع	ص . ب ٢٠١٤٦ الكويت
الأردن	☐ دار البشير	ص . ب ١٨٢٠٧٧ عمّان
تونس	☐ الشركة التونسية للتوزيع	ص . ب ٤٤٠ تونس
		5 ش قرطاج - تونس
الجزائر	☐ المؤسسة الوطنية لتوزيع الصحافة	38sis شارع ديدوشي مراد - الجزائر
السودان	☐ دار التوزيع	ص . ب ٣٥٨ الخرطوم
لبنان	☐ مؤسسة الجزيرة للخدمات والتوزيع	ص . ب ٧٣٨٥ بيروت بيروت - لبنان
مصر	☐ مؤسسة توزيع الأخبار	ص . ب ٧ القاهرة
المغرب	☐ الشركة العربية الإفريقية للتوزيع (سبريس)	ص . ب ٨ — ٧٠ زنقة سجلماسة الدار البيضاء
اليمن	☐ مؤسسة سبأ العامة للصحافة والأنباء	ص . ب ٢١٩٥ صنعاء شارع مطار صنعاء الدولي

كتاب الأمة

Al Ammah

مركز البحوث والمعلومات

هاتف	:	٤٦٦٢٢٢
تلكس	:	٥١١٥ شرعية دح
فاكس	:	٤٢١٦٧٠
برقيا	:	الأمة الدوحة
ص . ب	:	٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	جنيه واحد
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	جنيه واحد
المغرب	٨ دراهم
اليمن الشمالي	١٢ ريالاً

○ الأمريكتان وأوربا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار ونصف أمريكي أو ما يعادله . .

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٤٥٩ لسنة ١٩٩٠ م

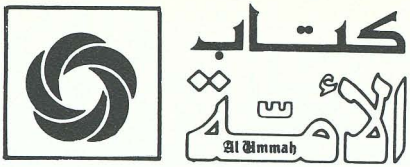

سلسلة فصلية، تصدر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر
ص . ب ٨٩٣ الدوحة ـ قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها ويسهم بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري وترشيد الصحوة في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة والإحاطة والموضوعية والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة وألا يكون سبق نشره .
- أن يوثق علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية وأسماء السور وتخريج الأحاديث .
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي والسياسي ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق .
- أن يكون البحث بخط واضح ويفضل أن يكون مكتوباً على الآلة الكاتبة وألا يزيد عن مائة صفحة (حجم فولسكاب) تقريباً .
- يفضل إرسال صورة عن البحث لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد ولا تسترد سواء اعتمدت أم لم تعتمد .

تقدم مكافأة مالية تتناسب مع قيمة البحث العلمية

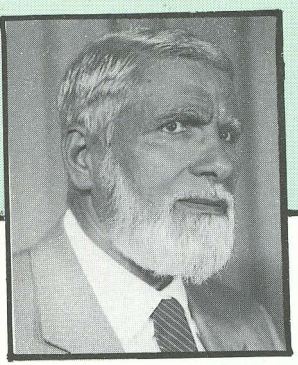

الدكتور عبدالعظيم محمود الديب

- ولد في إحدى قرى مصر بمحافظة الغربية سنة ١٩٢٩ م .
- حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية ، ثم أتم تعليمه بالأزهر ، وكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .
- وجه جل اهتمامه لدراسة التراث الإسلامي ، الذي يرى أنه هو الأساس الذي لا أساس سواه لبناء ثقافتنا .
- له العديد من المؤلفات والبحوث في مختلف جوانب الفكر الإسلامي .
- معيدٌ بمكتبة إمام الحرمين الجويني ، وأخرج منها : (البرهان) و (الغياثي) و (الدرة المضيئة) .
- يرى أن الشرط الأهم من الشروط الغائبة لنهضتنا ، هو إعادة قراءة التاريخ الإسلامي ، والدراسة العلمية الواعية لدَوْرتنا الحضارية .
- أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول بكلية الشريعة - جامعة قطر ، ومدير مركز بحوث السيرة والسنة بها بالنيابة .

■ نحن لايعنينا أمر المستشرقين ، وإنما مأساتنا في المستغربين الذين مازالوا يحملون أفكارهم ، ويعيشون بمفاهيمهم ، وهؤلاء المستغربون هم الذين ورثهم الاستعمار قيادة الفكر ، والتثقيف والإعلام ، ومكّن لهم وسائل القيادة وسلطانها . ■

■ الأمل في ناشئة أمتنا الذين مازالوا يتحسسون طريقهم عسى أن لايفتنوا بما افتتن به بعض الأساتذة الكبار ، فلا تخدعه عن نفسه وحقيقته تلك الصفوة التي انبهرت بالغرب . ■

■ تحامل المستشرقين على الإسلام غريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية ، بكل مالها من ذيول في عقول الأوروبيين الأولين . ■

■ التاريخ ليس علم الماضي ، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته ، فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها ضمير تاريخي تعي به ماضيها ، وتفسر حاضرها ، وتستشرف مستقبلها . ■

■ لقد اتجه المستشرقون إلى كتب التراث لأنها هي الخرائط والصور لعقولنا وعواطفنا ومشاعرنا ، واتجاهاتنا ، واهتمامنا وحبنا وبغضنا ورضانا .. فهي المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ثقافيًا واجتماعيًا وعلميًا . ■

■ لأهمية التاريخ وأثره في الأمة اتجه المستشرقون في أبحاثهم إليه وجاءت معظم أعمالهم في مجال التاريخ بمعناه العام : التاريخ السياسي والحضاري والاجتماعي ، وتاريخ الفرق والمذاهب والرجال والطبقات ومعاجم البلدان . ■

■ تركز اهتمام المستشرقين على تاريخ الفرق والصراع بينها ، وكانت لهم عناية خاصة بتاريخ الزندقة والزنادقة والقفز من وراء العصر الإسلامي إلى التاريخ القديم لإثارة النعرات الإقليمية ، وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية . ■

طبع بمطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة